شِعْرُ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ ﷺ

(دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ)

إِعْدادُ:

د. مُحَمَّدِ بْنِ هَادِي الْمُبَارَكِيِّ

الأُسْتَاذِ الْمُشَارِكِ فِي كُلِّيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْجَامِعَةِ

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أمّا بعد:

فإنّ الشّعر في ظلال الإسلام قد أدّى دوراً لا يُنكر في مسيرة الدّعوة الإسلاميّة حين واكب الغزوات والفتوحات، ونافح الشُّعراء عن حياض الدّعوة بكلّ ما أُوتوا من فصاحة وبيان، وبما استقرّ في نفوسهم من أضواء اليقين، وإشراقات الإيمان.

وكانت مواقف المصطفى ﷺ من شعراء الإسلام قد دفعت بهم إلى شحذ ملكاتهم وصقل مواهبهم، والوقوف في وجه أعداء الإسلام بالكلمة المؤمنة المشحونة بكل طاقات الانفعال الإيمانيّة التي تزلزل الجبال وتهزُّ الرّواسي.

ولقد كانت غزوات النّبيِّ ﷺ ميداناً خصباً سار في ركابه كثير من الشُّعراء، وأبانوا عن مناصرتهم لدين الله تعالى، والتّصدّي للمشركين الذين ما فتئوا يتعرّضون للمسلمين. حيث كان للشّعر– آنذاك – دوره في مختلف المواقع والغزوات التي خاضها المسلمون من أجل الدّفاع عن عقيدتهم، والحرص على نشر دعوتهم في شتّى الأقطار؛ وهو ما أوجد شعراً وافراً يواكب تلك الغزوات، ويعبّر عنها، ويستلهم المفهومات الدّينيّة في مضامينه التي يتناولها.

وقد آثرت أن تتناول هذه الدّراسة (شعر غزوات النّبيِّ ﷺ) للوقوف على هذا الشّعر، ومعرفة أبعاده وتصوُّراته، وما يحمله من قيم فنّيّة وسمات خاصّة.

أمّا المنهج الذي اتّبعته في هذه الدّراسة فيقوم على الجمع بين المنهجين الاستقرائي والتّحليلي الفنّي في الوقوف عند شعر الغزوات، وبيان الجوانب التي تناولها، وقد اقتصرت الدراسة على الغزوات التي قيل فيها شعر، أمّا التي لم يرد

فيها شعر فقد استثنيتها، وأوردت ما جاء نادراً من شعر في بعض الغزوات في ثنايا البحث، كما تناولت الدراسة الجوانب الفنية في شعر الغزوات وذلك من خلال الوقوف على بعض القيم الفنِّيَّة والسمات الأسلوبيَّة.

وقد تكوَّنت خطَّة البحث من فصلين، يسبقهما مقدِّمة، وتتلوهما الخاتمة، وتفصيل ذلك كالآتي:

الفصل الأوَّل بعنوان: (الشِّعر في مواكبة الغزوات). واشتمل على المباحث التَّالية:

(١) – غزوة بدر.

(٢) – غزوة أحد.

(٣) – غزوة الخندق.

(٤) – غزوة مؤتة.

(٥) – فتح مكّة.

أمَّا الفصل الثَّاني فهو بعنوان: ((القيم الفنِّيَّة في شعر الغزوات))

واشتمل على المباحث التَّالية:

(١) أثر القرآن الكريم في أسلوب الشِّعر.

(٢) اللُّغة الشِّعريَّة.

(٣) الصُّورة الفنِّيَّة.

وأخيراً جاءت الخاتمة، وتضمَّنت خلاصة للبحث.

أمَّا الفهرسان، فكان أحدهما للمصادر والمراجع، والآخر للموضوعات.

والله تعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، إنَّه خير مسؤول. وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

الفصل الأول: الشّعر في مواكبة الغزوات

كان عصر صدر الإسلام حافلاً بالوقائع المتوالية ضدّ المشركين؛ إذ كانت المعارك تدور معركة في إثر معركة، وقد أوجد ذلك صوراً مفعمة بالبسالة والتّضحية بين المجاهدين الذين كانوا يلاقون عتاة المشركين ويتصدّون لهم، ويوقعون بهم الهزائم؛ وذلك ما صوره الشعر في تلك الفترة، فقد واكب الأحداث، وأبرزها في صورة واضحة للعيان؛ تعبّر عن عظم المهمّة التي قام بها أولئك المجاهدون، وما قدموه خلالها من التضحية بالنفس والنّفيس.

وهو ما يدلّل على الدور العظيم الذي قام به الرسول الكريم –ﷺ– فقد استطاع أن يطوّر الحياة الاجتماعيّة والثّقافيّة والدّينيّة والحربيّة خلال– عقدين ونيّف من الزّمن، وأن يجهّز الجيوش والفرسان لنشر الدّعوة الإسلاميّة في مختلف الأمصار.وقد صوّر الشُعراء غزوات الرّسول ﷺ ومعاركه؛ وعلى رأسهم حسّان ابن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحـــة – رضوان الله عليهم أجمعين – الذين جاء شعرهم ناطقاً حيّاً ومعبّراً صادقاً عن المعارك والغزوات؛ سواءً أكانت داخل الجزيرة العربيّة أم خارجها؛ فجاء الشعر مفعماً بتصوير تلك الملاحم البطوليّة؛ التي سطّرها المسلمون، وقدّموا خلالها أروع التّضحيات من أجل نصرة الدّعوة الإسلاميّة.

ومن يتأمّل في أثر الشّعر في تلك الحقبة الزمنيّة، وقدرته على حفز الهمم والعزائم يدرك ما كان ينبغي أن يصنعه الشّعر من تأثير فاعل في مواجهة الأعداء الذين ما فتئوا يسيئون للدّعوة الإسلاميّة ويهجون الرسول الكريم والمسلمين؛ وهو ما ظهر جليّاً في أشعارهم التي ردّت عادية الأعداء، وتصدّت لسهامهم؛ فكانت تقوم بمهمّة الدفاع عن العقيدة الإسلامية؛ وذلك ما أبان عنه بوضوح الحديث

النَّبويُّ الشَّريف الذي روته عائشة–رضي الله تعالى عنها– أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنَّه أَشَدُّ عليهم من رشق النبل؛ فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهجهم فهجاهم، فلم يُرْضِ؛ فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم إلى حسَّان بن ثابت، فلمّا دخل حسَّان قال: قد آن لكم أن تُرْسِلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه ثم قال: والذي بعثك بالحقِّ لأفرينَّهم فري الأديم، فقال رسول الله ﷺ: لا تعجل فإنَّ أبا بكرٍ أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً حتَّى يلخِّص لك نسبي؛ فأتاه حسَّان ثم رجع فقال: يا رسول الله قد لخَّص لي نسبك، والذي بعثك بالحقِّ لأسلنَّك منهم كما تُسَلُّ الشَّعرة من العجين». قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد هجاهم حسَّان فشفى واشتفى»[1].

وقد عدَّ النبي ﷺ الشِّعر المدافع عن الإسلام نوعاً من أنواع الجهاد، وذلك في قوله ﷺ: «المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنَّ ما ترمونهم به نَضْحُ النَّبْلِ»[2].

فكان شعراء المسلمين يشاركون بقصائدهم في كل ما يعرض من أحداث، ويصفون المعارك الإسلامية.

وسوف يظهر بوضوح أثر شعر الغزوات في وصف المعارك التي دارت بين المسلمين والمشركين، وإبراز القيم الإسلاميَّة السَّامية التي أفصح عنها المسلمون، وهم يسيرون في الغزوات، ويخوضون المعارك، وتتحقَّق لهم الفتوح التي طالما انتظروها؛ لينشروا دعوتهم الإسلاميَّة في كلِّ الآفاق، ويعلنوا عن دينهم الحقّ الذي ارتضاه المولى – عزَّ وجلَّ – ديناً لكلِّ البشريَّة.

---

(١) صحيح مسلم ٤/١٩٣٥.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٤٦٥.

وفي مقدّمة تلك الغزوات التي خاضها المسلمون في عهد النّبيّ ﷺ:

(١) غزوة بدر:

لقد سجّل الشّعر غزوات النّبيّ ﷺ والوقائع التي دارت بين المسلمين والمشركين، وقد كانت البداية الأولى غزوة بدر التي التقى فيها المسلمون بجحافل قريش، وأذاقوهم مرارة الهزيمة، وقتلوا كبار رجالهم، وتركوهم مجندلين في أرض المعركة، حيث قُتل أبو جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وغيرهم من كبار المشركين الذين تحالفوا على حرب المسلمين، وهو الجانب الذي صوّره حسّان بن ثابت ﷺ في قصيدته الرائية التي يقول فيها:

ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَتَى مكّةَ الّذِي ... قَتَلْنَا مِنَ الكُفّارِ في سَاعَةِ العُسْرِ

قَتَلْنَا سَرَاةَ القَـــومِ عِنْدَ رِحَالِهِمْ ... فلم يَرْجِعُوا إلاّ بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ

قَتَلْنَـــا أَبَا جَهْـلٍ وعُتْبَةَ بَعْدَهُ ... وَشَيْبَةَ أَيْضاً عِنْدَ ثَائِرَةِ الصَّبْرِ[1]

وكَـــم قد قَتَلْنَـا من كَرِيمٍ مُرَزَّءٍ ... له حَسَبٌ في قومِهِ نَابِهِ الذِّكْـرِ

تَرَكْـناهُمُ للخَامِعَاتِ[2] تَنُوبُهـم ... ويَصْلَوْنَ ناراً ثمّ نائِبَـةِ القَعْرِ

بِكُفْرِهِـمُ باللهِ والـدِّينُ قائِـمٌ ... ومَا طَلَبُوا فِينَـا بِطَائِلَةِ الوِتْـرِ

لَعَمْرِي لقـد قَلَّتْ كَتَائِبُ غَالِبٍ ... وما ظَفِرَتْ يومَ الْتَقَيْنَا عَلَى بَدْرِ

لَقَـدْ شَقِيَتْ كَعْـبٌ جميعاً وعامرٌ ... بأسيـــافنـا يَوْمَ الْتَقَيْنَا على بَدْرِ

قَتَلْنَاهُمُ قَتْلَ الكلابِ فَلَـمْ نَدَعْ ... لهم في جميع النّاس يَا صَاحِ مِنْ فَخْرِ[3]

ولقد كان رسوخ المعتقد في نفوس الشُّعراء يدعوهم إلى التوكّل على الله،

---

(١) عُتْبَةُ وشَيْبَة: ابنا ربيعة بن عبد شمس من كبار قريش وساداتها، وقد قُتلا في بدر.

(٢) الخَامِعَاتُ: الخَامِعَةُ الضَّبُعُ، سُمِّيت كذلك لأنّها تَخْمَع إذا مشت. (انظر: اللسان ٧٩/٨).

(٣) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٦٦. تحقيق: د. سيد حنفي حسنين.

والثِّقة به، ورجاء النصر الذي لن يفارقهم ما داموا متوكلين على خالقهم -عزَّ وجلَّ- غير آبهين بالأعداء ولا بكثرة عددهم وعتادهم؛ وهو ما صوَّره حسَّان -رضي الله عنه- يوم بدر؛ عندما لقوا الكفَّار بعزيمة قويَّة، وإرادة عالية؛ فكان النصر حليفهم؛ رغم كثرة عدد المشركين؛ حيث يقول في هذا المعنى:

فَمَا نَخْشَى بِحَوْلِ اللهِ قَوْمـاً ... وإن كَثُرُوا وأُجْمِعَتِ الزُّحوفُ

إذا مـا أَلَّبُوا جَمْعـاً عَلَيْنَا ... كفانا حدَّهـم رَبٌّ رؤوفُ

سَمَوْنَا يومَ بدرٍ بالعـالي ... سِرَاعـاً ما تُضَعْضِعُنَا الحُتُوفُ

فَلَمْ تَرَ عُصْبَةٌ في النَّاسِ أنكى ... لِمَنْ عَادُوا إِذَا لَقِحَتْ كشُوفُ

ولكنَّـا تَوكَّلْنَـا وقُلْنَـا ... مـآثِرُنَا ومَعْقِلُنَا السُّيُوفُ

لَقِينَاهُـمْ بِها لَمَّا سَمَوْنَـا ... ونحن عِصَـابَةٌ وهُمُ أُلُـوفُ[1]

فهذه الأبيات تحمل في دلالتها المعنى العميق لآيات القرآن الكريم في نفس الشاعر؛ فقد استلهم قول الحق تبارك وتعالى في سورة الأنفال، وأبان عنه في البيت الأوَّل: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[2].

حيث تحمل الأبيات الشِّعرية معاني التَّضحية والفداء، والرَّغبة في الجهـاد في سبيل الله صفّاً واحداً، ونبذ الهيبة من الأعداء مهما بلغوا من الكثرة في العدد والعتاد؛ وهذه العزيمة الصادقة أبرزتها كثير من القصائد الشِّعريَّة التي تناولت الغزوات، ووصفت ما دار فيها من قوَّة المواجهة بين الجيشين.

وفي وصف غزوة بدر يشير حسان ﷺ إلى عظم قدرة الله تعالى، وكيف أنه نصر جنده في تلك الموقعة، وخذل المشركين المعاندين؛ الذين تكبَّروا وتجبَّروا

(١) ديوان حسَّان بن ثابت ص ٣٩١.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

على دعوة الحق، فأمهلهم الله وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وفي ذلك يقول:

وَخَبِّرْ بالَّـــذي لا عَيْبَ فيهِ ... بِصِدْقٍ غيرِ إخْبَـــارِ الكَـــذُوبِ
بِمَا صَنَعَ المَلِيكُ غَـــدَاةَ بَدْرٍ ... لنا في المشـــركينَ منَ النَّصيبِ
غَدَاةَ كأنَّ جَمْعَهُـــــمُ حِرَاءٌ ... بَدَتْ أرْكَانُـــهُ جُنْحَ الغُرُوبِ
فَلاقَيْنَاهُـــــمُ مِنَّا بِجَمْـــعٍ ... كَأُسْدِ الغابِ مِنْ مُرْدٍ وَشِيبِ
أمَامَ مُحَمَّـــــــدٍ قَدْ آزَرُوهُ ... عَلى الأعْدَاءِ في وَهْجِ الحُروبِ
بأيديهِمْ صَـــوارِمُ مُرْهَفَـــاتٌ ... وكلُّ مجرَّبٍ خَاظِي الكُعُـــوبِ
فَغَـــادَرْنَا أَبَا جَهْلٍ صريـــعاً ... وعُتْبَةَ قَـــدْ تركنا بالجَبُـــوبِ
وشيبةَ قَـــدْ تركنا في رجـــالٍ ... ذوي حَسَبٍ إذا انْتَسَبُوا حَسِيبِ[1]

حيث أبانت هذه الأبيات عن شدّة موقعة بدر، وما حدث فيها من قتل سادة قريش وفرسانهم، فقد تُركوا مجندلين في أرض المعركة والطّير تحوم فوقهم في مشهد يدلُّ على بسالة المجاهدين، وتمكّنهم من أعدائهم. ولا غرابة في ذلك فقد كانت التّضحية والفداء تتقدّمان تلك المعركة، وذلك حين تسابق الصّحابة – رضوان الله عليهم– لحمل السّلاح ومقاتلة أعداء الإسلام، وذلك سعياً وراء رضوان الله تعالى، وطمعاً بجنّته التي وعد بها الشُّهداء في سبيله. وحينما قال الرّسول ﷺ يوم بدر: «والذي نفس محمّد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلاّ أدخله الله الجنّة»[2]، فقال عُمير بن الحُمام السُّلمي ﷺ، وكان يأكل تمرات بيده: بخٍ بخٍ، فما بيني وبين أن أدخل الجنّة إلاّ أن يقتلني هؤلاء ! ثمّ قذف التّمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتّى قُتل، وهو يقول:

---

(١) ديوان حسّان بن ثابت ص ١٣٤-١٣٥.

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٦٢٧/١، تحقيق: مصطفى السّقا وآخرين.

رَكْضاً إلى اللـــهِ بغـــيرِ زَادِ إلاّ التُّقى وعَمَلِ المَعَـــادِ
والصَّبْرِ في اللهِ عَلَى الجِهَادِ وكلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَـــادِ
غيرُ التُّقَى والبِرِّ والرَّشَـــادِ[1]

(٢) غزوة أحد:

تعدُّ غزوة أحد الموقعة الثانية التي دارت بين المسلمين وكفّار قريش بالمدينة المنورة، وذلك حين عزم كفار قريش على أن يثأروا لهزيمتهم ببدر، وما أصابهم فيها من الخسائر في الأرواح والأموال وسقوط هيبتهم، حيث بدأوا يعدُّون العدَّة لأخذ الثّار من المسلمين، فجمعوا قبائلهم وعشائرهم ومن حالفهم من مكّة وجوارها وجاءوا قاصدين النّيل من رسول الله ﷺ في عدد من الرّجال يزيد على الثلاثة آلاف مقاتل، بينما كان عدد المسلمين الذين خرجوا وثبتوا لهذه المعركة لا يزيد على الأربعمائة مجاهد، وقد انتهت المعركة لصالح المشركين، حيث استطاع الكفّار قتل بعض قادة المسلمين، وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطّلب ﷺ ورجع الرّسول ﷺ بمن معه من الرّجال إلى المدينة، بينما عادت جحافل الكفّار ومعهم جرحاهم وبقلوبهم فرحة الثّار لقتلاهم في بدر التي حاقت بهم الهزيمة فيها.

وقد كان للشّعر دوره في غزوة أحد، حيث وصف الشُّعراء ما دار فيها من أحداث ومواقف، ودارت مساجلات بين شعراء المسلمين وشعراء الكفّار، ورثى الشُّعراء من استشهدوا في تلك الغزوة، وفي مقدّمتهم حمزة بن عبد المطّلب ﷺ.

وأولى هذه القصائد التي نظمها الشُّعراء في تلك الغزوة قصيدة حسّـــان

(١) تاريخ الرُّسل والملوك للطّبري ٢/٤٤٨، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

ابن ثابت ﷺ الّتي ردَّ فيها على هُبيرة بن أبي وهب المخزومي – شاعر المشركين – الذي خالجه السُّرور والتّعالي بما حقّقه قومه في أُحد، وهو ما ظهر في قصيدته التي يقول مطلعها:

سُقْنَا كِنَانةَ مِنْ أَطْرَافِ ذي يَمَنٍ عُرْضِ الْبِلَادِ عَلَى ما كانَ يُزْجِيها[1]

فقد ردَّ عليه حسَّان بن ثابت ﷺ بقوله:

سُقْتُمْ كِنَانةَ جَهْلاً مِنْ سَفَاهَتِكُمْ إِلَى الرَّسُولِ فَجُنْدُ اللهِ مُخْزِيها
أَوْرَدْتُمُوها حِيَاضَ المَوْتِ ضَاحِيَةً فَالنَّارُ مَوْعِدُها، والقَتْلُ لاقِيها
أَنتم أَحَابِيشُ جُمِّعْتُمْ بِــلا نَسَبٍ أَئِمَّةُ الكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيها
هَلاَّ اعْتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ اللهِ إِذْ لَقِيَتْ أَهْلَ القَلِيبِ ومَنْ أَرْدَيْتَهُ فِيهَا
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَكْنَــاهُ بِلَا ثَمَنٍ وَجَزٍّ نَاصِيَةٍ كُنَّا مَوَالِيهــــا[2]

حيث يشير حسَّان – ﷺ – إلى صنيع المشركين وجهلهم، حين ساقوا جيوشهم من بني كنانة لقتال النبي –ﷺ– والمسلمين وكيف أنهم رجعوا خائبين خاسرين أمام جند الله الذين أذاقوهم مرارة الهزيمة، بل يشير حسَّان إلى صنيع المسلمين بأسرى بدر الذين أطلقوهم بلا ثمن؛ ليعلم أولئك عظمة النّصر الذي حقّقه المسلون وعلو مكانته.

أمَّا كعب بن مالك – ﷺ – فقد أجاب هُبيرة بقصيدة طويلة وصفت ما دار في غزوة أُحد، وما حفلت به الموقعة من شدَّة وضراوة، حيث بدأ قصيدته بوصف مكان المعركة، وأنّها كانت أرضاً صعبة المسالك وعرة الدُّروب، لا يسلكها إلاّ حمر الوحش أو النّعام، وقد امتلأت بالجيف من مخلّفات الوحوش وعظام الفرائس، يقول:

(١) السِّيرة النّبويَّة ٣/١٣٠.

(٢) ديوان حسَّان بن ثابت ص ٢٠٥.

أَلا هَلْ أَتَى غَسَّانَ عَنَّا ودُونَهُمْ ... مِنَ الأَرْضِ خَرْقٌ سَيْرُهُ مُتَتَعْتِعُ[1]

صَحَارٍ وأَعْلامٌ كَـأَنَّ قَتَامَهـا ... مِنَ الْبُعْدِ نَقْعٌ هَـامِدٌ مُتَقَطِّعُ[2]

تَظَلُّ بِهِ البُزْلُ العَرَامِيسُ رُزَّحاً ... وَيَخْلُو بِهِ غَيْثُ السِّنِينِ فَيُمْرِعُ[3]

بِهِ جِيَفُ الحَسْرَى يَلُوحُ صَلِيبُها ... كَمَا لاحَ كِتَّانُ التجار المُوَضَّعُ[4]

بِهِ العِينُ والآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَـةً ... وبيض نَعامٍ قَيْضُه[5] يَتَقَلَّـعُ[6]

ثمَّ يصف كعب ﷺ بطولة المؤمنين الذَّائدين عن دين الله، مذكِّراً المشركين في أُحد بهزيمتهم السَّاحقة التي واجهتهم في بدر، يقول:

مُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنا كلُّ فَخْمَةٍ[7] ... مُذَرَّبَةٍ فيها القَوَانِسُ تَلْمَـعُ[8]

وكلُّ صموتٍ في الصُّوانِ كأنَّها ... إذا لُبِسَتْ نَهْيٌ من الماء مُتْرَعُ[9]

ولكنْ بِبَدْرٍ سَائِلُوا مَنْ لَقِيتُـمُ ... من النَّاسِ، والأَنْبَاءُ بالغَيْبِ تَنْفَعُ[10]

ثم يشير كعب ﷺ إلى الاستعداد النَّفسي لتلك الموقعة، وكيف أنّ الكفّار

---

(١) الخرق: الفلاة التي تنخرق فيها الرِّيح. ومتتعنع: مضطرب.

(٢) الأعلام: الجبال المرتفعة. والقتام: ما مال لونه إلى السَّواد.

(٣) البُزْل: جمع بازل وهو البعير القويّ. والعِرْمِسُ: النَّاقة الشَّديدة. ويمرع: يخصب.

(٤) الصَّليب: ودك العظام. والموضَّع: المبسوط والمنقوش.

(٥) العِينُ: البقر الوحشي. الآرام: الظِّباء. القيض: قشر البيض الأعلى.

(٦) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٢.

(٧) قال ابن هشام: وكان كعب بن مالك قد قال: مجالدنا عن جِذْمنا كل فخمة. فقال رسول الله ﷺ: أيصلح أن تقول مجالدنا عن ديننا؟ فقال كعب: نعم. فقال رسول الله ﷺ: فهو أحسن، فقال كعب: مجالدنا عن ديننا. (انظر السِّيرة النَّبويَّة ٢/١٣٦).

(٨) مجالدُنا: مدافعنا. والفخمةُ: الكَتيبةُ العظيمة. المُذَرَّبَةُ: المتعودةُ على القتال الماهرة فيه.

(٩) الصَّمُوتُ: الدِّرع. الصوانُ: كل ما يُصان فيه الشَّيءُ، درعاً كان أو ثوباً أو غيرهما. النَّهْيُ: الغديرُ. ومُتْرَعٌ: أي: مملوءٌ ماءً.

(١٠) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٣.

ضربوا خيامهم وأبنيتهم بأرض المعركة، ورأى المؤمنون كثرتها فتشاوروا فيما بينهم ماذا يمنعهم من السُّكوت على ما بدأهم به الكفّار؟ وكيف لا يتشاورون مع رسول الله ﷺ فيما ينبغي فعله ؟ فقوله الحقُّ، ومن أعرض عن نصحه فقد باء بالخسران، وبعد المشاورة أبان لهم الرَّسول ﷺ أنَّ من كانت نيَّته للجهاد حقيقةً والطَّمع فيما عند الله تعالى فعليه أن يشمِّر لذلك؛ ليظفر بما أعدَّه الله – عزَّ وجلَّ – لعباده المؤمنين الصَّادقين، وفي ذلك يقول:

ولَمَّا ابْتَنَوْا بالعِرْضِ[1] قَالَ سَرَاتُنا ... عَلَامَ إذا لم نَمْنَع العِرْضَ نَزْرَعُ ؟

وفِينَـــا رَسُولُ اللهِ نَتْبَـعُ أَمْرَهُ ... إِذَا قَالَ فِينَا القَوْلَ لا نَتَطَلَّـــعُ

تَدَلَّى عليه الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ... يُنَزَّلُ مِنْ جَـــوِّ السَّمَاءِ ويُرْفَـــعُ

نُشَاوِرُهُ فيما نُرِيدُ وقَصْرُنَـــا[2] ... إذا ما اشْتَهَى أَنَّا نُطِيعُ ونَسْمَـــعُ

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ لَمَّا بدوا لنـــا ... ذَرُوا عَنْكُمُ هَوْلَ المَنِيَّاتِ واطمعوا

وكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الحَيَاةَ تَقَرُّباً ... إِلَى مَلِكٍ يُحْيَـــا لَدَيْهِ ويُرْجَـــعُ

ولكن خُذُوا أَسْيَافَكُمْ وتَوَكَّلُوا ... على اللهِ إِنَّ الأَمْـــرَ للهِ أَجْمَعُ

فَسِرْنَا عليهم جَهْرَةً في رِحَالِهِمْ ... ضُحَيَّاً عَلَيْنَا البِيضُ لا نَتَخَشَّعُ[3]

ثم يصل كعب ﷺ – إلى وصف المعركة وأحداثها، بدءاً من بيان عدد المقاتلين من الطَّرفين، وانتهاءً بما حدث في أرض المعركة من التحام الجيشين؛ حيث تُسدَّد الطَّعنات، وتُصوَّب الرِّماح، وتَهرع الخيول، وتسبح في الفضاء كأنَّها الجراد المنتشر؛ وفي ذلك يقول:

---

(١) العِرض: موضع خارج المدينة. وكلُّ وادٍ فيه شجر فهو عِرض.

(٢) قَصْرُنَا: غايتنا ونهاية أمرنا.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٤ – ٢٢٥.

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ من البَحْرِ وَسْطَهُ ... أَحَابِيشُ منهم حَاسِرٌ ومُقَنَّـــعُ
ثَلَاثَـــةُ آلافٍ ونحنُ نَصِيَّـــةٌ[1] ... ثَلَاثُ مِئِينٍ إِنْ كَثُرْنا وأَرْبَـــعُ
نُغَاوِرُهُـــمْ تَجْرِي المَنِيَّـــةُ بَيْنَنَا ... نُشَارِعُهُمْ[2] حَوْضَ المَنَايَا ونَشْرَعُ
تَهَادَى قِسِيُّ النَّبْعِ فينا وفيهـــمُ ... وما هُوَ إِلاَّ اليَثْرِبِيُّ[3] المُقَطَّـــعُ
ومَنْجُوفَةٌ حِرْمِيَّةٌ صَاعِدِيَّـــةٌ[4] ... يُذَرُّ عليها السُّمُّ ساعةَ تُصْنَـــعُ
تَصُوبُ بِأَبْدَانِ الرِّجَالِ وتَـــارَةً ... تَـــمُـــرُّ بِأَعْرَاضِ البِصَارِ تُقَعْقِعُ[5]
وخَيْلٌ تَرَاهَـــا بالفَضَـــاءِ كأنَّها ... جَرَادُ صَـــبًا في قَرَّةٍ يَتَرَيَّـــعُ[6]
فلَمَّ تَلاقَيْنَا ودَارَتْ بِنَـــا الرَّحَى ... ولَيْسَ لأَمْرٍ حَمَّـــهُ اللهُ مَدْفَعُ
ضَرَبْنَاهُمُ حَتَّى تَرَكْنَا سَرَاتَهُمْ[7] ... كَأَنَّهُمُ بِالْقَـــاعِ خُشْبٌ مُصَرَّعُ
فَنِلْنَا وَنَـــالَ القَوْمُ مِنَّـــا وربَّما ... فَعَلْنَا، ولكنْ ما لَدَى اللهِ أَوْسَعُ
ودَارَتْ رَحَانَا، واسْتَدَارَتْ رَحَاهُمُ ... وقَدْ جُعِلُوا كُلٌّ من الشَّرِّ يَشْبَعُ[8]

ويختتم كعب ﷺ قصيدته بتعداد صفات جيش المسلمين في أنهم يقدمون على الحرب متى كانت دفاعاً عن عرض أو عقيدة وليس لمغنم دنيوي، وأنهم تدرَّبوا على الحرب وألفوها، فلا يهابون أعداءهم، ولا يتراجعون في المواجهة،

(١) النَّصِيَّةُ: الخيارُ من القوم.
(٢) نُغَاورهم: أي نغير عليهم. ونُشَارعهم: أي نشاركهم.
(٣) اليَثْرِبِيُّ: الأوتار، نسبةً إلى يثرب.
(٤) المنحوفةُ: السِّهامُ المثقَّفة. والحرميَّةُ: نسبةً إلى أهل الحرم. والصَّاعديَّةُ: نسبة إلى صاعد، وهو صانع معروف.
(٥) تَصُوبُ: تقع. والبِصَارُ: الحجارةُ اللينةُ. وتُقعقعُ: تُصوِّت.
(٦) الصَّبَا: ريحٌ شرقيَّة. والقَرَّةُ: البردُ. ويَتَرَيَّعُ: يجيء ويذهب.
(٧) سَرَاتُهم: خيارهم.
(٨) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٥ – ٢٢٧.

وقد عرفوا آداب القتال فلا يجزعون إن أُصيبوا، فالحرب سجال دائماً، وإن ظفروا بالعدوّ فـــلا فحش ولا تمثيل بالقتلى أو إذلال للأسرى وإنّما منهج الإســـــلام في معاملة المتحاربين والأسرى، حيث يقول كعب واصفاً بطولة ذلك الجيش المسلم:

ونحن أُناسٌ لا نَـــــرَى القَتْلَ سُبَّةً عَلَى كلِّ مَنْ يَحْمِي الذِّمارَ[1] ويَمْنَعُ
ولكنّنا نَقْلِي الفِرَارَ، ولا نَرَى الـــ ـــفِرَارَ لمن يرجو العَوَاقِبَ يَنْفَعُ
جِلادٌ[2] على ريب الحوادث لا ترى على هَالِكٍ عَيْناً لنا الـــدَّهرَ تَدْمَعُ
بنُو الحَـــرْبِ لا نَعْيَا بشيءٍ نَقُولُـــه ولا نحـــنُ مِمَّا جَرَّتِ الحَرْبُ نَجْزَعُ
بنُو الحَـــرْبِ إن نَظْفَرْ فَلَسْنَا بِفُحَّشٍ ولا نحـــــنُ مِنْ أَظْفَارِهـــا نَتَوَجَّعُ
وكُنَّا شِهَاباً يتَّقي النَّـــاسُ حَـــرَّهُ ويَفْرُجُ عنهُ من يليهِ ويُسْفَـــــعُ[3]

وبينما كانت المعارك تدور بين المسلمين والمشركين فقد كان هناك من يفخر من المشركين بما تحقّق في غزوة أحد ناسياً صنيع المسلمين في بدر، ومن أولئك الشُّعراء عبد الله بن الزِّبعرى[4] الذي افتخر في إحدى قصائده التي يقول فيها:

يا غُرَابَ البَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ إِنَّما تَنْطِـــــقُ شَيْئاً قد فُعِلْ
كَمْ قَتَلْنَا من كَرِيمٍ سَيِّـــدٍ ماجِدِ الجَدَّيْنِ مِقْـــــدَامٍ بَطَلْ

(١) السُّبَّةُ: العار. والذِّمار: ما يجب على الرَّجل حمايته.

(٢) جِلادٌ: جمع جليدٍ وجَلْدٍ وهو الصُّلبُ.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٧ – ٢٢٨.

(٤) هو عبد الله بن الزِّبعرى بن قيس بن عدي بن سعد السَّهمي القرشي؛ كان شديداً على المسلمين يهجوهم ويحرِّض المشركين عليهم، وقد أسلم بعد فتح مكّة، واعتذر من النَّبيِّ ﷺ عمَّا بدر منه. وكانت وفاته سنة ١٥هـ. (انظر: أُسد الغابة في معرفة الصَّحابة لابن الأثير ١٦٠/٣).

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ[1]

فانبرى له حسَّان بن ثابت – ﷺ – يردّ عليه، ويبيِّن له أنّ الحرب سجال بين الطّرفين، وأنّ المسلمين قد نالوا من المشركين في أحد كما نال المشركون منهم؛ مذكّراً إيَّاه بما لاقوه من الهزيمة في ((بدر))، وكيف قتل سادتهم، وهرب فرسانهم في تلك الموقعة، وباءوا بالخزي والخذلان؛ حيث يقول حسّان ﷺ:

ذَهَبَتْ بابْنِ الزِّبَعْرَى وَقْعَةٌ كَانَ مِنَّا الفَضْلُ فيها لو عَدَلْ

ولقد نلتـــم ونلنـــا منكمُ وكَـــذَاكَ الحَرْبُ أحياناً دُوَلْ

نضعُ الأَسْيَافَ في أَكْتَافِكُمْ حيثُ نَهْوِي عَلَلاً بعـــد نَهَلْ

إِذْ تُولُّون عَلَى أَعْقَابِكُـــمْ هُرَّباً في الشِّعْبِ أَشْبَاهَ الرِّسَلْ[2]

إِذْ شَدَدْنَا شَدَّةً صادقـــةً فأجاناكـــم إلى سَفْحِ الجَبَلْ

وعَلَوْنَـــا يَوْمَ (بَدْرٍ) بالتُّقَى طَاعـــةِ اللهِ، وتَصْدِيقِ الرُّسُلْ

وتَرَكْنَـــا في قُرَيْـــشٍ عَوْرَةً يَوْمَ بَدْرٍ وَأَحَـــادِيثَ المَثَلْ[3]

أمَّا كعب بن مالك ﷺ فيردُّ في قصيدته اللاميَّة على كلّ من تطاول على المسلمين من شعراء قريش، ويوضّح لهم أنّه إذا كان هناك من قادة المسلمين من قُتل في (أُحد)، وهو ما أفرح المشركين وشعراءهم فإنّ عليهم أن يعودوا بذاكرتهم إلى ما أصابهم في (بدر)، وما واجهوه من صور البطولة والتّضحية التي أبداها المسلمون؛ حيث يقول:

أَبْلِغْ قُرَيْشاً وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُـــهُ والصِّدْقُ عندَ ذَوِي الأَلْبَابِ مَقْبُولُ

أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بقتلانا سَرَاتَكُـــمُ أَهْلَ اللِّواءِ؛ ففيـــم يكثرُ القِيـــلُ؟

---

(١) شعر عبد الله بن الزِّبعرى ص ٤١ – ٤٢، تحقيق: د. يحيى الجبوري.

(٢) الرِّسَلُ: الإبل المرسلة بعضها في إثر بعض.

(٣) ديوان حسَّان بن ثابت ص ٩٣ – ٩٤.

ويومَ بَدْرٍ لَقِيناكُمْ لَنَا مَـــدَدٌ ... فِيهِ مع النَّصر مِيكَالٌ وجبريـــلُ
إنْ تَقْتُلُونـــا فَدِينُ اللّـــهِ فِطْرَتُنا ... والقَتْلُ في الحقِّ عنـــد الله تَفْضِيلُ
وإنْ تَرَوْا أَمْرَنا في رأيكُم سَفَـهاً ... فَرَأْيُ مَنْ خَالَفَ الإسلامَ تَضْـــلِيلُ
فَلَا تَمَنَّوْا لِقَاحَ الحَرْبِ واقْتَعِدُوا ... إنَّ أخَا الحَرْبِ أَصْدَى اللونِ مَشْعُولُ[1]
إنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا ضَرْبـــاً تَرَاحُ لَهُ ... عُرْجُ الضِّباعِ له خَذْمٌ رَعَـــابِيلُ[2]
إنَّا بنُو الحَرْبِ نَمْرِيها ونَنْتُجُهـــا ... وعندنا لِذَوِي الأَضْغَانِ تنكـــيلُ[3]

وكما يظهر فقد أثّرت غزوة أُحد في نفوس الشُّعراء في عهد النَّبيِّ ﷺ، ودعتهم إلى التَّجاوب معها، والتَّعبير عن مواقفها وأحداثها، والتَّصدِّي لمن حاول الإساءة للنَّبيِّ ﷺ – وللمسلمين، وهو ما قام به شعراء المشركين بعد الموقعة، الأمر الذي دعا شعراء المسلمين إلى الرَّدِّ عليهم، وكشف أكاذيبهم وتخرُّصاتهم، وبيان أثر الإسلام في كلِّ ما تحقَّق للمسلمين من عزَّة ومنعة.

(٣)– غزوة الخندق:

في السَّنة الخامسة للهجرة تجمَّعت قوى الشِّرك لمحاربة النَّبيِّ ﷺ والمسلمين بالمدينة، وتزعَّم أبو سفيان تلك الجموع من القرشيِّين ومن والاهم من غطفان والقبائل المجاورة، ويأتي الجميع إلى المدينة المنـــوّرة قاصـــدين القضاء على الإسلام بجحافلهم وعدَّتهم الحربيَّة التي لم يكن للمسلمين قِبَل بها، ولم يكتفوا بذلك بل تعاهدوا مع يهود بني قريظة في حصونهم حول المدينة من أجل القضاء على المسلمين.

---

(١) لِقَاحُ الحَرْبِ: زيادتها ونموُّها. وأصدى اللون: لونُه بين السَّواد والحُمْرَة. ومَشْعُولٌ: أي متَّقد متلهِّب.

(٢) تَرَاحُ: تفرحُ وتهتزُّ. والخذمُ: قطعُ اللَّحم. والرَّعابيلُ: المُتَقَطِّعةُ.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص ٢٥٥ – ٢٥٦.

ولمّا علم رسول الله ﷺ بتآمرهم وتحزُّبهم جمع المسلمين وأعلمهم ما عزم عليه أبو سفيان ومَنْ والاه من غطفان واليهود، وتشاور معهم، وانتهت مشورتهم بحفر خندق حول المدينة حتّى يمكنهم التّحصُّن فيها، فإذا دهمهم العدوّ نالوه ولا ينالهم، وبدأ المسلمون حفر الخندق، وكان الرَّسول ﷺ يعاونهم في حفره ويشدّ من عزيمتهم، ويرغبهم فيما عند الله تعالى من الأجر؛ حتى إذا اكتمل حفر الخندق جاءت فلول المشركين التي تجمَّعت من قبائل عدَّة، وتحزَّبت لحرب المسلمين، يقودهم إلى ذلك طمعهم واستكبارهم وعتوهم؛ حيث نزلوا بجانب أُحُد[1]، وهناك ظهر لهم المسلمون الذين كان عددهم يقدَّر بثلاثة آلاف، والخندق يفصل بين الفريقين؛ فخرج من بين صفوف المشركين عمرو بن ود العامري – وكان مُعْلَماً – وقال: مَنْ يُبارز؟ فخرج له من المسلمين عليُّ بن أبي طالب ﷺ وقال له: يا عمرو إنَّك عاهدتَ الله ألاّ يدعوك رجلٌ من قريش إلى إحدى خَلَّتين إلاّ أخذتها منه، فقال له: أَجَلْ، فقال له عليٌّ: فإنِّي أدعوك إلى النّزال، فقال له: لِمَ يا ابن أخي؟ فو الله ما أُحبُّ أن أقتلك، فقال له عليٌّ: لكنِّي والله أُحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعقره، وضرب وجهه، ثمّ أقبل على عليٍّ، فتنازلا وتجاولا، فقتله عليٌّ ﷺ وخرجت خيلهم منهزمة، حتّى اقتحمت من الخندق هاربةً[2].

وقد وصف عليٌّ – ﷺ – ذلك الحدث والموقف الشُّجاع الّذي أبان عن قوّة المسلمين في مواجهة أعداء الإسلام في أبيات شعريَّة، قال فيها:

نَصَرَ الحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ ونَصَرْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِي

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة ٢/٢١٦ – ٢١٧.

(٢) السِّيرة النَّبويَّة ٢/٢٢٥.

فَصَدَدْتُ حـــين تَرَكْتُه مُتَجَدِّلاً كالجِذْعِ بينَ دَكَـــادِكٍ ورَوَابِي[١]
وعَفَفْـــتُ عَنْ أَثْوَابِهِ ولَوَ انَّني كُنْتُ المُقَطَّـــرَ بَزَّني أَثْـــوَابِي[٢]
لا تَحْسَبَنَّ اللهَ خَاذِلَ دِينِـــــهِ ونَبِيِّهِ يـــا مَعْشَرَ الأَحْـــزَابِ[٣]

وقد شكّك ابن هشام في نسبة هذه الأبيات لعليّ بن أبي طالب ﷺ[٤].

ولم يكن تحزُّب الأعداء واتِّحادهم لحرب المسلمين أمراً يثير الهيبة أو الخوف في قلوب المجاهدين؛ الذين نذروا أنفسهم للدِّفاع عن عقيدتهم، ونصرة نبيِّهم ﷺ حيث لقاء الأعداء هو لقاء الشَّجاعة، والنُّصرة، والتَّضحية لقوم دَرِبوا على القتال، وعَلَّموا أنفسهم في الحرب حتَّى أصبحوا ظاهرين للنَّاس جميعاً، وكأنَّهم أسود يحمون عرينهم، ويدافعون عن رسالتهم الخالدة.. وهي المعاني التي أشار إليها كعب بن مالك ﷺ في قصيدته التي قالها يوم الخندق؛ حيث قال:

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمَعْمِعُ بَعْضُـــهُ بَعْضاً كَمَعْمَعَةِ الأَبَاءِ المُحْرَقِ[٥]
فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً تُسَـــنُّ سُيوفُهـــا بينَ المِذَادِ وبينَ جِزْعِ الخَنْدَقِ[٦]
دَرِبُوا بِضَرْبِ المُعْلِمِينَ[٧] وأَسْلَمُوا مُهْجَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِرَبِّ المَشْرِقِ

(١) مُتَجَدِّلاً لاصقاً بالأرض. والجِذْعُ: فرع النَّخلة. والدَّكْدَكُ والدَّكْدَاكُ: أرضٌ فيها غلظ، والجمعُ دَكَادِكُ.

(٢) المُقَطَّرُ: الذي ألقي أحد قطريه؛ أي جنبيه، والقطر: الجانب. وبزَّني: سلبني.

(٣) السِّيرة النَّبويَّة ٢/٢٢٥.

(٤) المصدر السَّابق ٢/٢٢٥.

(٥) المعمعة: اختلاط الأصوات وشدَّةُ زجلها. الأَبَاءُ: القصبُ، ومعمعةُ الأباء: صوت الحريق في القصب.

(٦) المأسدةُ: الموضع الذي تجتمع فيه الأُسود. وتُسَنُّ: تُحدُّ. والمِذَادُ: موضعٌ بالمدينة حيث حُفر الخندق، وقيل هو بين سلع وخندق المدينة. والجزعُ: الجانب.

(٧) المُعْلِمِينَ: الذين يُعلِّمون أنفسهم في الحرب بعلامة يُعرفون بها.

فِي عُصْبَةٍ نَصَرَ الإِلَهُ نَبِيَّهُ بِهِمُ، وكَانَ بِعَبْدِهِ ذَا مَرْفَقِ[1]

ويمضي كعب ﷺ في قصيدته إلى وصف السِّلاح؛ فيصوِّر الدُّروع تحكي حلقاتها في سردها المحكم وشكلها الموثَّق أحداق الجنادب؛ فهي مستديرة الحلق، تشمِّرها للحرب حمائل السُّيوف الصَّارمة؛ حيث يقول:

فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تَخُطُّ فُضُولُها كَالنَّهْيِ[2] هَبَّتْ رِيحُه المُتَرَقْرِقِ

بَيْضَاءَ مُحْكَمَةٍ كَأَنَّ قَتِيرَهَا حَدَقُ الجَنَادِبِ ذَاتَ شَكٍّ مُوْثَقِ[3]

جَدْلاء يَحْفِزُها نِجَادُ[4] مُهَنَّدٍ صَافِي الحَدِيدَةِ صَارِمٍ ذِي رَوْنَقِ

تِلْكُمْ مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسَنَا يَوْمَ الهِيَاجِ وكُلَّ سَاعَةِ مَصْدَقِ[5]

والبيت الأخير يصوِّر أهمِّيَّة التقوى والإيمان في الحروب التي يخوضها المسلمون؛ إذ ليس من طبعهم أن يركنوا إلى العدَّة المادِّيَّة دون أن يدَّخروا في نفوسهم زاد التَّقوى الذي يوصلهم إلى غايتهم الكبرى التي يبتغونها من وراء نصرهم للإسلام.

أمَّا الإعداد للمعركة– وهو الجانب الذي أُمر به المسلمون وهم يواجهون أعداءهم– فيشير إليه كعب بن مالك من خلال إعداد الخيول الأصيلة المضمَّرة، التي تصعد بفرسانها إلى حلبة القتال، وتمكِّنهم من اصطياد أعدائهم،والظَّفر عليهم؛ يقول:

وَنُعِدُّ لِلأَعْدَاءِ كُلَّ مُقَلَّصٍ وَرْدٍ ومَحْجُولِ القَوَائِمِ أَبْلَقِ[6]

---

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٤.

(٢) السَّابغة: الدُّروع الكاملة. النَّهْي: الغديرُ من الماء.

(٣) القَتِيرُ: مساميرُ الدُّروع. والجنادبُ: ذكور الجراد. والشَّكُّ: إحكام السَّرد.

(٤) الجَدْلاء: الدُّروع المحكمة أو المدوَّرة الحلق. ويحفزها: يرفعها. والنِّجاد: حمائل السُّيوف.

(٥) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٥.

(٦) المقلَّص من الخيول: طويل القوائم ضامر البطن. والورد: الفرس الأشقر الذي حمرة لونه =

تَرْدَى بِفُرْسَانٍ كَأَنَّ كُمَاتَهُمْ عِنْدَ الهِيَاجِ أُسُـــودُ طَلٍّ مُلْثِقِ[١]
صُدُقٌ يُعَاطُونَ الكُمَاةَ حُتُوفَهُمْ تَحْـتَ العَمَايَةِ بالوَشِيجِ المُزْهِقِ[٢]
أَمَرَ الإِلَـــهُ بِرَبْطِهَـا لِعَدُوِّهِ فِي الحَـرْبِ، إِنَّ اللهَ خَيْرُ مُوَفِّقِ
لِتَكُونَ غَيْظاً لِلْعَدُوِّ وحُيَّـطاً للـدَّارِ إِنْ دَلَفَتْ خُيُول النُّزَّقِ[٣]
ويُعِينُنَا اللهُ العَـزِيزُ بِقُـــوَّةٍ مِنْـهُ، وَصِدْقِ الصَّبْرِ سَاعَةَ نَلْتَقِي
ونُطِيـعُ أَمْرَ نَبِيِّنَـــا ونُجِيبُه وإِذَا دَعَـــا لِكَرِيهَةٍ لم نُسْبَـقِ
ومَتَى يُنَادِ إِلى الشَّدَائِـدِ نَأْتِهَا وَمَتَى نَرَ الحَوْمَاتِ[٤] فيها نُعْنِقِ[٥]

وفي هذه الموقعة تظهر أكثر من قصيدة شعريَّة وهي تنافح عن المسلمين، وتردُّ عادية الأعداء، ومن تلك القصائد قصيدة حسان بن ثابت ﷺ التي تصدَّى فيها للرَّدِّ على شاعر الكفَّار آنذاك عبد الله بن الزِّبعرى الذي أخذ يفتخر بموقف قومه يوم الخندق، ويتطاول على المؤمنين؛ وذلك في قصيدته البائيَّة[٦]. حيث نظم حسَّان بائيَّته التي يردُّ فيها على ابن الزِّبعرى، ويبيِّن له الهدف البائس الذي جاءوا من أجله وهو قتل النبي ﷺ والاستيلاء على الغنائم، ولكنهم لم

= ذاهبة إلى الصُّفرة. والمحجول: الذي في قوائمه بياض يخالف سائر لونه. والأبلق: إذا تجاوز البياض إلى عضديه وفخذيه.

(١) ترد: تُسرع. الكُمَاة: جمع كَمِيٍّ وهو الشُّجاع. المُلْثِقُ: ما يكون عن الطَّلِّ من زلقٍ وطين.

(٢) العِمَايَة: سحابةُ الغُبَار وظلمتُه. والوشيجُ: الرِّماحُ. المُزْهِقُ: المُذْهِبُ للنُّفوس.

(٣) دَلَفَتْ: تقدَّمت. النُّزَّقُ: الطَّائشون، السَّيئو الخلق.

(٤) الحَوْمَاتُ: مواطن القتال، واحدها حَوْمَةٌ.

(٥) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٦ – ٢٤٧.

(٦) انظر: ديوان عبد الله بن الزِّبعرى ص ٢٩، والقصيدة مطلعها:

حَيِّ الدِّيَارَ مَحَا مَعَارِفَ رَسْمِها طُولُ البِلَى وتَرَاوُحُ الأَحْقَـــابِ

يظفروا من ذلك بشيء، يقول حسّان:

حتَّى إِذَا وَرَدُوا المدينةَ وارْتَجَوْا ... قَتْلَ النَّبِيِّ وَمَغْنَمَ الأَسْلابِ
وغَدَوْا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِهِمْ ... رُدُّوا بِغَيْظِهِمُ عَلَى الأَعْقَابِ
بِهُبُوبِ مُعْصِفَةٍ تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ ... وجُنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الأَرْبَابِ
وكَفَى الإِلَهُ المؤمنينَ قِتَالَهُمْ ... وأَثَابَهُمْ في الأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ[1]

ومن شعراء المشركين من ظلّ يتوعَّد بعد هزيمة الخندق، ويعد بردّ قاسٍ في موقعة لاحقة يصطف منها جيش المشركين لمنازلة المسلمين، وذلك ما يعبِّر عنه شاعرهم ضرار بن الخطَّاب[2] الذي رأى أنّ المعركة لم تنته بعد، وأن المنازلة ستكون قريبة، حيث يعبِّر عن ذلك في قصيدته النونيَّة التي قال فيها:

ومُشْفِقَةٍ تَظُنُّ بنا الظُّنونَا ... وقَدْ قُدْنَا عَرَنْدَسَةً طَحُونَا[3]
وسوفَ نَزورُكم عَمَّا قَرِيبٍ ... كَمَا زُرْنَاكُمُ مُتَوَازِرِينَا
بِجَمْعٍ مِن كِنَانَةَ غير عُزْلٍ ... كَأُسْدِ الغَابِ قد حَمَتِ العَرِينَا[4]

لكنَّ كعب بن مالك ﷺ يردُّ على ضرار بن الخطَّاب، ويوضِّح له طبيعة القتال معه، وأسباب النَّصر التي تنزل عليهم من خالقهم؛ فهم يسعون إلى رفع راية الإسلام، يتقدَّمهم النَّبيُّ ﷺ الذي دعاهم إلى دين الهدى والحقِّ، وحثَّهم على الصَّبر واليقين في مواجهة الأعداء، حيث قال:

---

(١) ديوان حسَّان بن ثابت ص ١٢٠.

(٢) هو ضرار بن الخطَّاب بن مرداس القرشي الفهري، فارس شاعر، قاتل المسلمين، واسلم يوم فتح مكَّة. (انظر: الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر ١/٣٣٧).

(٣) العَرَنْدَسَةُ: الشَّديدةُ القويَّة، يريد الكتيبة. والطَّحون: التي تطحن كلَّ ما مرَّت به.

(٤) السِّيرة النَّبويَّة ٢٥٤ – ٢٥٥.

وسَائِلَةٍ تُســـائلُ ما لَقِينَـــا ولو شَهِـدَتْ رَأَتْنَا صَابِرِينَا
صَبَرْنَا لا نَرَى لِلَّـهِ عِـدْلاً عَلَى مَـا نَابَنَـــا مُتَوَكِّلِينَـا
وكانَ لنـا النَّبيُّ وَزِيرَ صِـدْقٍ بِـــهِ نَعْلُو البَرِيَّةَ أَجْمَعِينَـا
نُقَاتِلُ مَعْشَراً ظَلَمُـــوا وعَقُّوا وكانوا بالعَدَاوَةِ مُرْصِدِينَـا[1]
نُعَاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَـــا بِضَرْبٍ يُعْجِـلُ المُتَسَرِّعِينَـا
وفي أَيْمَانِنَا بِيضٌ خِفَـــافٌ بِهَا نَشْفِي مِرَاحَ الشَّاغِبِينَـا[2]
بِبَابِ الخَنْدَقَيْنِ كأَنَّ أُسْـــداً شَوَابِكُهُنَّ يَحْمِـينَ العَرِينَـا
لِنَنْصُرَ أَحْمَداً واللَّـــهَ حتَّى نكونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَـا
ويَعْلَمَ أَهْلُ مَـكَّةَ حِينَ سَارُوا وأَحْزَابٌ أَتَوْا مُتَحَـزِّبِينَـا
بأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَـــهُ شَرِيكٌ وأَنَّ اللهَ مَـــوْلَى المُؤْمِنِينَـا[3]

وقد أراد الرَّسول ﷺ أن يُؤمِّن المدينة وحدودها بعد موقعة الخندق مع قريش وبخاصَّة من الفتنة التي كان يوقد جذوتها يهود بني قريظة وبني النَّضير؛ الذين اشتركوا في موقعة الخندق مع قريش، وقصدوا إثارة الفتنة بين النَّاس في المدينـــة أثناء الموقعة؛ حيث نقضوا عهود الأمان التي أبرمها المسلمون، ولجأوا للغدر والمكيدة؛ لأجل ذلك وجَّه النَّبيُّ ﷺ جيشه لمحاربتهم؛ حيث حاصرهم في حصونهم، وانتصر عليهم، وباءت كل مكائدهم بالفشل، ونالوا جزاء ما كانوا يفعلونه مع المسلمين من الإخلاف بالعهد والتَّحالف مع المشركين؛ يقول حسَّان ﷺ:

لَقَدْ لَقِيَتْ قُرَيْظَةُ مَا سَاءَهـــا وحَـــلَّ بِحِصْنِها ذُلٌّ ذَلِيـــلُ

---

(١) المُرْصِدُ: المُعِدُّ للأمر عُدَّته.

(٢) المِرَاحُ: النَّشاط. والشَّاغبين: الذين ديدنهم الشَّغب وتهييج الشَّر.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص ٢٧٩ – ٢٨٠.

فَمَا بَرِحُوا بِنَقْضِ العَهْدِ حَتَّى غَـــزَاهُمْ فِي دِيَارِهِمُ الرَّسُولُ
أَحَاطَ بِحِصْنِهِمْ مِنَّا صُفُوفٌ لَهُ مِنْ حَرِّ وَقْعَتِهَـــا صَلِيـــلُ
وَصَارَ المؤمنون بِدَارِ خُلْـــدٍ أَقَـــامَ لَهُمْ بِهَا ظِلٌّ ظَلِيـــلُ[1]

(٤) – غزوة مؤتة:

كانت غزوة مؤتة – في السَّنة الثَّامنة للهجرة – أوَّل معركة تقع بين جيش المسلمين وجيش الرُّوم الذين وصلتهم الأخبار عن قوَّة ذلك الجيش المسلم، وكان سبب هذه الغزوة أنَّ النَّبيَّ ﷺ أرسل الحارث بن عمير بكتاب إلى أمير (بصرى) من جهة هرقل، وهو الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني، فلمَّا نزل مؤتة تعرَّض له شرحبيل بن عمرو الغسَّاني وقتله، فلمَّا بلغ الأمر رسول الله ﷺ اشتدَّ ذلك عليه، وجهَّز جيشاً لمقاتلة ملوك الرُّوم[2]. وقد أمر ﷺ مولاه زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف من المسلمين، وندب النَّاس وقال لهم: إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على النَّاس، فإنْ أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على النَّاس، فإنْ قتل ابن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم[3]. والتقى الجيشان جيش المسلمين وجيش الرُّوم – الَّذي كان يقدَّر عدده بمائتي ألف مقاتل – في مكان يقال له مؤتة، فقاتل زيد بن حارثة ﷺ براية رسول الله ﷺ حتَّى قُتِل في رماح القوم، ثمّ أخذ الرَّاية من بعده جعفر بن أبي طالب ﷺ فقاتل بها حتَّى إذا ألحمه القتال، وأحاط به العدو من كل جانب، اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها حتى لا تقع في يد العدوّ، ثم أقبل يقاتل وهو يردِّد أبياتاً

(١) ديوان حسَّان بن ثابت ص ٢٤٥.
(٢) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ، د. محمَّد السَّيِّد الوكيل ص ٢٣٧.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ٢/٣٧٣.

تحمل معاني الشّجاعة والبسالة والتّضحية في ما عند الله من النّعيم والرّضوان، ودخول الجنان، فهو يقاتل ابتغاء ما عند الله، والجنة عنده أسمى مطلوب، وفي ذلك يقول ﷺ:

يا حَبَّـــذَا الجنَّةُ واقْتِرَابُها طَيِّبَـــةً وبَـــارداً شَرَابُهـــا
والرُّومُ رُومٌ قد دَنَا عَذَابُها كَـــافِرَةٌ بعيدةٌ أنْسَابُهـــا
عَلَيَّ إذْ لاقَيْتُهـــا ضِرَابُهـــا[1]

ثمّ قاتل حتّى قُتل ﷺ.

ثمّ أخذ الرّاية من بعده عبد الله بن رواحة ﷺ فتقدّم يقاتل الرُّوم، فداخل نفسه شيء من روع لا يخلو منه الموقف، فجعل يحفّز نفسه ويشدُّ من عزيمتها، وهو يردّد بعض الأبيات الشّعريّة التي يقول فيها:

أَقْسَمْـــتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّـــهْ لَتَنْزِلِـــنَّ أَوْ لَتُكْـــرَهِنَّـــهْ
إنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّةْ[2] مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِـــينَ الجَنَّـــةْ
قَدْ طَالَمَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّـــةْ هَلْ أَنْتِ إلَّا نُطْفَةٌ في شَنَّـــةْ[3]

ثمّ تقدّم يقاتل، فأُصيبت إصبعه، فارتجز قائلاً:

هَلْ أَنْتِ إلا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وفي سَبِيلِ اللَّـــهِ مَا لَقِيـــتِ
يَا نَفْسُ إلا تُقْتَلِي تَمُوتِي هذا حِيَاضُ المَوْتِ قد صَلِيتِ
وما تَمَنَّيْتِ فقـــد لَقِيتِ إنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيـــتِ
وإنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شَقِـــيتِ[4]

---

(١) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٨.

(٢) أَجْلَبَ القومُ: صاحوا واجتمعوا. والرَّنَّةُ: صوتٌ فيه ترجيع يشبه البكاء.

(٣) ديوان عبد الله بن رواحة – ودراسة في سيرته وشعره – د. وليد قصّاب ص ١٥٣.

(٤) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥٤.

فقاتل حتَّى قُتل ﷺ.

ومن القصص التي تروي صور البطولة والإقدام في حياة الشَّاعر عبد الله ابن رواحة ﷺ تلك التي رواها ابن هشام. إذ يروي أنَّ رسول الله ﷺ حين جهَّز جيش المسلمين لملاقاة الرُّوم؛ وكان ابن رواحة القائد الثالث للمعركة إذ استشهد سابقاه؛ وهما زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب –رضي الله عنهما– فلمَّا وُدِّع عبد الله من رسول الله مع من وُدِّع بكى؛ فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حبُّ الدُّنيا ولا صبابة بكم، ولكنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله –عزَّ وجلَّ– يذكر فيها النَّار ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[1]، فلست أدري كيف لي بالصَّدر بعد الورود ؟ فقال المسلمون: صَحِبَكُم الله، ودفع عنكم، وردَّكم إلينا صالحين[2]، ثم أنشد ابن رواحة أبياتاً يعبِّر فيها عمَّا في نفسه وهو يسير في الجهاد راجياً مغفرة ربِّه ورضوانه، والفوز بالشَّهادة في سبيله؛ إذ قال:

لكنَّني أَسْأَلُ الرَّحمـــــنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا[3]

أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِـزَةً بِحَـرْبَةٍ تُنْفِذُ الأَحْشَاءَ والكَبِدَا[4]

حَتَّى يُقَالَ إذا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي أَرْشَـدَهُ اللهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا[5]

وكان المسلمون لَـمَّا نزلوا (مَعَان) من أرض الشَّام هالهم ما رأوا من كثرة عدد الرُّوم وما يملكونه من عتاد، وبدأوا يفكِّرون في ذلك، وهل يرسلون

---

(١) سورة مريم، الآية ٧١.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ص ٣٧٣/٢ – ٣٧٤.

(٣) ذات فرغ: الفرغُ مخرجُ الماء من الدَّلو. والزَّبدُ: الرَّغوة.

(٤) الحرَّان: العطشان. مُجهزة: مسرعة متمِّمة، يقال: أجهز على الجريح إذا أماته.

(٥) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٤٧.

إلى الرَّسول ﷺ يخبرونه بذلك أم لا ؟ فقام عبد الله بن رواحة ﷺ يشجِّعهم ويستحثُّهم على القتال، مبيِّناً لهم أنَّ النَّصر لا يتحقَّق عن كثرة العدد أو العُدَّة وإنَّما يتحقَّق بالصَّبر والمصابرة والطَّاعة والإخلاص في إعلاء راية الإسلام، وهزيمة المشركين، فالمجاهد في سبيل الله يقاتل الأعداء وهو يرجو الظَّفر بإحدى الحسنيين، إمَّا النَّصر وإمَّا الشَّهادة في سبيل الله[١]. فتشجَّع النَّاس وقالوا: قد – والله – صدق ابن رواحة، وأنشد في ذلك الموقف يقول:

جَلَبْنَا الخَيْلَ مِنْ أجَإٍ وفَرْعٍ[٢] ... تُغَرُّ من الحَشِيشِ لها العُكُومُ[٣]

حَذَوْنَاها مِنَ الصَّوَّانِ سَبْتاً ... أَزَلَّ كَأَنَّ صَفْحَتَهُ أَدِيمُ[٤]

أَقَامَتْ لَيْلَتَيْنِ على مَعَانٍ ... فَأَعْقَبَ بَعْدَ فَتْرَتِها جُمُومُ[٥]

فَرُحْنَا والجِيَادُ مُسَوَّمَاتٌ[٦] ... تَنَفَّسُ في مَنَاخِرِها السُّمُومُ

فلا وأبي مآبَ[٧] لِنَأْتِيَنْهَا ... وإنْ كَانَتْ بها عَرَبٌ ورُومُ

فَعَبَّأْنَا أَعِنَّتَها فَجَاءَتْ ... عَوَابِسَ، والغُبَارُ لها بَرِيمُ[٨]

بِذِي لَجَبٍ كَأَنَّ البَيْضَ فيهِ ... إِذَا بَرَزَتْ قَوَانِسُها النُّجُومُ[٩]

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ٢/٣٧٥.

(٢) أجأ: أحد جبلي طيء، والآخر سلمى. والفرع: اسم موضع.

(٣) تغرُّ: تطعم شيئاً بعد شيء. والعُكومُ: جمع عِكْم، وهو الجنب.

(٤) الصَّوَّان: حجارةٌ مُلس، واحدها صوانة. أزل: أملس. الأدم: الجلد.

(٥) الجموم: النَّشاط والرَّاحة.

(٦) مسوَّمات: معلَّمات.

(٧) مآب: اسم مدينة في طرف الشَّام من نواحي البلقاء.

(٨) البريم في الأصل: خيطان مختلفان أحمر وأبيض، وكلّ ما فيه لونان مختلطان فهو بريم.

(٩) اللجبُ: اختلاط الأصوات وكثرتها. والبَيْضُ: ما يوضع على الرَّأس من الحديد. والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى البيضة.

فَرَاضِيَةُ[1] المَعِيشَةِ طَلَّقَتْهَا أَسِنَّتُها، فَتَنْكِحُ أَوْ تَئِيمُ[2]

وفي ليلة السَّفر إلى مؤتة، وبينما كان الطَّريق طويلاً وشاقّاً، كان عبد الله ابن رواحة ﷺ يستغرق في الأمل بالشَّهادة والفوز برضوان الله – عزَّ وجلَّ – إذ ذهب يناجي ناقته، ويبشِّرها بتحريرها من الأسفار؛ فلا عودة إلى بلاد النَّخيل؛ لأنَّه عزم في قرارة نفسه على شدِّ الرِّحال إلى جوار ربِّه– جلَّ وعلا – حيث يقول:

إِذَا أَدَّيْتِنِي وحَمَلْتِ رَحْلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الحِسَاءِ[3]
فَشَأْنُكِ أَنْعُمٌ، وَخَلَاكِ ذَمٌّ وَلَا أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي
وجَاءَ المُسلمون وغادَرُوني بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهِيَ الثَّوَاءِ
وَرَدَّكِ كُلُّ ذِي نَسَبٍ قَرِيبٍ إِلَى الرَّحمنِ مُنْقَطِعَ الإِخَاءِ
هُنَالِكَ لا أُبَالِي طَلْعَ بَعْلٍ[4] ولَا نَخْلٍ أَسَافِلُهَا رِوَاءُ[5]

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تعلُّق الشَّاعر بالشَّهادة، والسَّير لأجلها على راحلته، التي بلغته رحلته المأمولة، ولقي ما كان يرجوه من الاستشهاد في سبيل الله، والفوز برضوانه – عزَّ وجلَّ – وهي صورة مؤثِّرة تعكس روح التَّضحية والفداء التي قدَّمها أولئك المجاهدون في تلك الغزوات.

---

(١) راضيةٌ: أي مرضيَّة.

(٢) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٤٩ – ١٥٠.

(٣) أَدَّيتي: أوصلتني. والحِساءُ: جمع حِسيٍّ، وهو ماء يغور في الرَّمل.

(٤) البَعْلُ: النَّخلُ الذي يشرب بعروقه من الأرض فيستغني عن السَّقي، ويقال: استبعل النَّخل: أي: شرب بعروقه.

(٥) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥١.

(٥)– فتح مكّة:

كانت الإرهاصات لهذا الفتح المجيد منذ وقت مبكّر، ففي نهاية العام السادس للهجرة عزم النبيّ ﷺ أن يدخل مكّة معتمراً، فاستنفر المؤمنين بالمدينة ليخرجوا معه، فلمّا شعر أهل مكّة بقدومه أرسلت إليه قريش تستطلع الأمر أقتال أم عمرة، فلمّا علموا بحقيقة الموقف أخذتهم العزّة بالإثم، وطلبوا عقد هدنة مع النبي ﷺ والمسلمين تقضي بأن يكف عنهم القتال لعشرة أعوام وأن يرجع إلى المدينة عامهم هذا، فإذا انصرم جاء ومن معه من المسلمين معتمرين في العام القابل، وبعد عودته ﷺ إلى المدينة جرت أحداث كثيرة نقض المشركون خلالها الهدنة وأغاروا على (خزاعة) الداخلة في عهد رسول الله ﷺ، فجهّز – عليه السلام– الجيش المؤمن وقاده إلى مكّة، وحمل علي بن أبي طالب ﷺ اللواء، وفتحت مكّة ودخلها رسول الله ﷺ ومن معه وكان ذلك نصراً عظيماً للمسلمين [١].

وقد واكب الشّعر ذلك الفتح، وأشاد الشُّعراء بما تحقّق للمسلمين في هذا الفتح من عزٍّ ومنعة ونصر للإسلام، حيث أظهرت القصائد الشّعريّة قدرة جيش المسلمين على الفتح، وتمكين الله تعالى لهم. ومن ذلك ما يظهر في قول بُجير بن زهير[٢] حين يصف هذا الفتح، ويشير إلى الطريقة التي التقى فيها الجمعان، جيش المسلمين بعزيمته وصبره وتوكله على الله تعالى، وجيش الكفر بتخاذله وانكساره، فكانت الصَّيحات والطِّعان وقفزات خيل المؤمنين معبرةً عن الفرح

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ٢/٤١٢.

(٢) هو: بجير بن زهير بن أبي سلمى المُزني، أسلم قبل السَّنة السَّابعة للهجرة، ودعا أخاه كعباً للإسلام، وشهد مع المسلمين بعض الغزوات ومنها فتح مكّة. (انظر: الإصابة في تمييز الصَّحابة ٢/١٤١).

بنصر الله، فقد أهال المؤمنون على خصومهم ضرباً بالسُّيوف، وطعناً بالرِّماح؛ حتَّى تحقَّق لهم ما كانوا يأملون فيه من الهجرة، وباء الكفَّار بالهزيمة والخسران؛ وفي ذلك يقول بُجير:

ضَرَبْنَاهُمْ بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتْحِ النَّـ ـبِيِّ الخَيْرِ بِالبِيضِ الخِفَافِ
صَبَحْنَاهُمْ بِسَبْعٍ[1] مِنْ سُلَيْمٍ وَأَلْفٍ مِن بَنِي عُثْمَانَ وَافِ
نَطَا أَكْتَافَهُمْ ضَرْباً وَطَعْناً وَرَشْقاً بالمريَّشَةِ اللِّطَافِ[2]
تَرَى بَيْنَ الصُّفُوفِ لَهَا حَفِيفاً كَمَا انصَاعَ الفُوَاقُ مِنَ الرَّصَافِ[3]
فَرُحْنَا والجِيَادُ تَجُولُ فِيهِمْ بِأَرْمَاحٍ مُقَوَّمَةِ الثِّقَافِ
فَأُبْنَا غَانِمِينَ بِمَا اشْتَهَيْنَا وَآبُوا نَادِمِينَ عَلَى الخِلَافِ
وَأَعْطَيْنَا رَسُولَ اللهِ مِنَّا مَوَاثِقَنَا عَلَى حُسْنِ التَّصَافِي
وقد سَمِعُوا مَقَالَتَنَا فَهَمُّوا غَدَاةَ الرَّوْعِ مِنَّا بِانْصِرَافِ

ويتوقَّف العبَّاسُ بن مرداس السُّلمي[4] ﷺ عند فتح مكَّة بعد أن اشترك مع قومه من بني سُلَيْم في ذلك الفتح؛ حيث يبيِّن في إحدى قصائده القوَّة العدديَّة لقومه الذين شاركوا تحت إمرة النَّبيِّ الكريم ﷺ موضِّحاً ما كانوا عليه من الإقدام، والبسالة، والتَّضحية من أجل تحقيق النَّصر؛ حيث يقول:

(١) بسبع: أي بسبع مائة. وبنو عثمان: هم مُزينة.

(٢) نَطَا: أراد نَطَأ، فخفَّف الهمزة. والرَّشْقُ: الرَّمي السَّريع. والمريشةُ: يعني السِّهام ذوات الريش.

(٣) الحفيفُ: الصَّوت. وانصاع: انشقَّ. والفواقُ هنا: الفوق، وهو طرف السَّهم الذي يلي الوتر. والرَّصافُ: جمع رصفة، وهي عصبةٌ تلوى فوق السَّهم.

(٤) هو: العبَّاس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة السُّلمي، يكنَّى أبا الهيثم، وهو من شعراء البادية، أسلم قبيل فتح مكَّة، وشارك مع قومه في الجهاد ونصرة الإسلام، توفي سنة ١٨هـ. (انظر: الإصابة لابن حجر ١/٣٤٢).

مِنَّا بِمَكَّةَ يومَ فَتْحِ محمَّـــــدٍ أَلْفٌ تَسيلُ بِهِ البِطَاحُ[١] مُسَوَّمُ
نَصَرُوا الرَّسُولَ، وشَاهَدُوا أَيَّامَهُ وشِعَــارُهُمْ[٢] يومَ اللِّقاءِ مُقَدَّمُ
في مَنْزِلٍ ثَبَتَتْ بِهِ أَقْدَامُهُـــــمْ ضَنْكٍ كَأَنَّ الهَامَ فيهِ الحَنْتَــمُ[٣]
جَرَّتْ سَنَابِكَها بِنَجْدٍ قَبْلَهــــا حتَّى اسْتَقَادَ لها الحِجَازُ الأَدْهَمُ
اللَّـــــهُ مَكَّنَهُ لَـــهُ وأَذَلَّهُ حُكْمُ السُّيُوفِ لَنَا وجَدٌّ مِزْحَمُ[٤]
عَوْدُ الــرِّيَاسَةِ شَامِخٌ[٥] عِرْنِينُهُ مُتَطَلِّعٌ ثغرَ المَكَـــارِمِ خِضْرِمُ[٦]

وينطلق حسَّان بن ثابت ﷺ في همزيَّته من جانب الدِّفاع عن الدَّعوة الإسلاميَّة وصاحبها ﷺ الذي ما فتئ المشركون يكيلون له السِّباب، والتُّهم، ويرمونه بأبشع الصِّفات في وقت هو يسعى إلى هدايتهم ودخولهم الدِّين الحق لينعموا بسماحته وعدله، ولكن أئمَّة الكفر ورؤوس الفتنة ظلُّوا يكيدون له، ولذا هجاهم حسَّان ر بما قدَّمت أيديهم في تعذيب المؤمنين، والتَّطاول على سيد المرسلين ﷺ، حيث يقول:

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ [٧] عَنِّي فأنتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ
هَجَوْتَ محمَّداً فأَجَبْتُ عنهُ وعندَ اللهِ في ذاكَ الجــزاءُ
أَتَهْجُــوهُ وَلَسْتَ لَهُ بكُفْءٍ فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُمَا الفِــداءُ

---

(١) البِطاحُ: جمع بطحاء، وهي الأرض السَّهلة المتسعة.
(٢) شعارهم: علامتهم في الحرب.
(٣) ضنك: ضيِّق. والهام: الرؤوس. والحنتم: الحنظل.
(٤) مزحم: كثير المزاحمة، يريد أنَّ جدَّهم غالب.
(٥) العَوْدُ (هنا): الرَّجلُ المُسنُّ. وشامخٌ: مرتفع , والخضرمُ: الجواد الكثير العطاء.
(٦) السِّيرة النَّبويَّة ٢/٤٢٦ – ٤٢٧.
(٧) هو أبو سفيان الحارث بن عبد المطلب.

هَجَوْتَ مُبَارَكاً برّاً حَنِيـــفاً ... أَمِينُ اللهِ، شِيمَتُـــهُ الوفـــاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُـــهُ وَيَنْصُرُهُ سَـــواءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِـــدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ محمَّـــدٍ مِنكُمْ وِقَاءُ
لِسَانِي صَـــارِمٌ لاَ عَيْبَ فيهِ ... وَبَحْرِي مَا تُكَدِّرُهُ الـــدِّلاَءُ[1]

وكما يظهر في البيت الأخير فإنَّ حسَّان ﷺ يفخر بفصاحته وبلاغته وجودة شعره، فإذا كان الأعداء يظنُّون أنهم ينالون من المسلمين بشعرهم فإنَّ هذا السلاح هو أمضى وأقوى لدى المسلمين؛ لأنهم يدعون إلى الحق، ويذودون عن عقيدتهم بسنانهم ولسانهم.

ويصف العبَّاس بن مرداس ﷺ طريقة الجيش الفاتح في السير إلى الجهاد، وكيف أنهم يسيرون تحت إمرة النبي الكريم ﷺ ويطيعونه فيما أمر، ويجتنبون ما نهى عنه، الأمر الذي حقَّق لهم الفلاح، وأخضع الأقوام للدخول في دين الله؛ وفي ذلك يقول:

فَمَنْ مُبْلِغُ الأَقْـــوَامَ أنَّ محمَّداً ... رَسُولُ الإلهِ راشِدٌ حَيْثُ يَمَّمَا
دَعَا ربَّه واستنصـــرَ اللهَ وَحْدَه ... فَأَصْبَحَ قَدْ وَفَّى إليـــه وأَنْعَمَا
سَرَيْنَا ووَاعَـــدْنَا قَـــدِيداً محمَّداً ... يَؤُمُّ بنا أمـــراً من الله مُحْكَمَا
تَمَارُوا بِنَا في الفَجْرِ حَتَّى تبيَّنوا ... مع الفجر فتياناً وغاباً مُقَوَّمَا
فإنَّ سَرَاةَ الحيِّ إن كنتَ سائلاً ... سُلَيْمٌ وفيهم منهمُ مَن تَسَلَّمَا
وجُندٌ مِنَ الأَنْصَـــارِ لا يَخْذُلُونَه ... أَطَاعُوا فَمَا يَعْصُونَه ما تَكَلَّمَا[2]

وبعد الفتح الإسلامي وما أدخله من فرح في النُّفوس توجَّه المسلمون بقيادة الرَّسول ﷺ إلى الطَّائف لدعوة أهلها إلى الدُّخول في الإسلام، وبيان

(١) ديوان حسَّان بن ثابت ص ٧٥-٧٦.
(٢) السِّيرة النَّبويَّة ٤/١١٠-١١١.

موقفهم منه، وكان مع الرَّكب المتَّجه إلى الطَّائف كعب بن مالك ﷺ الَّذي نظم قصيدته في وصف المعارك التي خاضها جيش المؤمنين، وقد تكلَّلت بالنَّصر المؤزَّر، وما تبع ذلك من دخول الناس في دين الله أفواجاً حتى وصل ذلك الجيش إلى الطائف، ليكمل رسالته في نشر الدَّعوة الإسلاميَّة، حيث يقول كعب في مطلع قصيدته:

قَضَيْنَـــا مِنْ تِهَامَةَ كُـــلَّ رَيْبٍ ... وخَيْبَرَ، ثُمَّ أَجْمَمْنَا[1] السُّيُوفَا
نُخَيِّرُهَا، وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَـــالَتْ ... قَوَاطِعُهُنَّ: دَوْساً أَوْ ثَقِيفَـــا
فَلَسْتُ لِحَاضِنٍ[2] إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مِنَّا أُلُوفَـــا
وَنَنْتَزِعُ العُرُوشَ بِبَطْنِ (وَجٍّ)[3] ... وَنُصْبِحُ دُورَكُمْ مِنَّا خُلُوفَـــا
وَيَأْتِيكُمْ لَنَا سَرَعَانُ خَيْـــلٍ ... يُغَادِرُ خَلْفَـــهُ جَمْعـــاً كَثِيفـــاً
بِأَيْدِيهِمْ قَوَاضِبُ مُرْهَفَـــاتٌ ... يُزِرْنَ المُصْطَلِينَ بِهَـــا الحُتُوفَـــا
كَأَمْثَالِ العَقَائِقِ أَخْلَصَتْـــهَـــا ... قُيُونُ الهِنْدِ لم تُضْرَبْ كَتِيفَـــا[4]
تَخَالُ جَدِيَّةَ الأَبْطَالِ فِيـــهَـــا ... غَدَاةَ الزَّحْفِ جَادِيّاً[5] مَدُوفَـــا[6]

وبعد هذه المقدِّمة التي أبان فيها كعب ﷺ عمَّا صنعه المسلمون مع أعداء الدَّعوة الذين لم يستجيبوا لنداء الحقِّ، انطلق بعد ذلك إلى إنذار المشركين بما

---

(١) أَجْمَمْنَا: أَرَحْنَا.

(٢) الحَاضِنُ: المرأةُ التي تحضن ولدها.

(٣) وَجٌّ: من أسماء الطَّائف. (انظر: معجم البلدان ٥/٣٦١).

(٤) العقائقُ: جمع عقيقةٍ، وهي شعاعُ البرق. وكتيف: جمع كتيفة، وهي الصَّفائح الحديد التي تستعمل في صنع الأبواب.

(٥) الجديَّةُ: الطَّريقةُ من الدَّم. والجاديُّ: الزَّعفران. ومدوفٌ: مخلوط بغيره.

(٦) ديوان كعب بن مالك ص ٢٣٤ – ٢٣٥.

ينتظرهم من سوء العاقبة إن لم يتَّبعوا الطَّريق الحقّ، وإشهادهم بأنَّهم قادمون؛ فمن آثر السَّلام فليسلم بما جاء به المصطفى ﷺ ليعيش عيشة راضية، ومن لم يسلم، أو تحدِّثه نفسه بالموادعة؛ فليتحمَّل وزره ووزر من اتَّبعه، أو استجاب لنصحه، حيث ينطلق كعب في هذا المعنى فيقول:

أَجِدَّهُمُ أَلِيسَ لَهُمْ نَصِيحٌ ... مِنَ الأَقْوَامِ كَانَ بِنَا عَرِيفَا[1]

يُخَبِّرُهُمْ بِأَنَّا قَدْ جَمَعْنَا ... عِتَاقَ الخَيْلِ والنُّجُبَ الطُّرُوفَا[2]

وأَنَّا قَدْ أَتَيْنَاهُمْ بِزَحْفٍ ... يُحِيطُ بِسُورِ حِصْنِهِمُ صُفُوفَا

رَئِيسُهُمُ النَّبِيُّ وكَانَ صلباً ... نَقِيَّ القَلْبِ مُصْطَبِراً عَزُوفَا

رَشِيدَ الأَمْرِ ذُو حُكْمٍ وعِلْمٍ ... وحِلْمٍ لم يَكُنْ نَزِقاً خَفِيفَا

نُطِيعُ نَبِيَّنَا ونُطِيعُ رَبّاً ... هُوَ الرَّحْمنُ كَانَ بِنَا رَؤُوفَا

فَإِنْ تُلْقُوْا إِلَيْنَا السِّلْمَ نَقْبَلْ ... ونَجْعَلْكُمْ لَنَا عَضُداً وَرِيفَا[3]

وإِنْ تَأْبَوْا نُجَاهِدْكُمْ ونَصْبِرْ ... ولا يَكُ أَمْرُنَا رَعِشاً ضَعِيفَا

نُجَالِدُ مَا بَقِينَا أَوْ تُنِيبُوا إِلَى ... الإِسْلامِ إِذْعَاناً مُضِيفَا[4]

نُجَاهِدُ لا نُبَالِي مَنْ لَقِينَا ... أَأَهْلَكَنَا التِّلادَ أَم الطَّرِيفَا

لأَمْرِ اللَّهِ والإِسْلامِ حَتَّى ... يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَدِلاً حَنِيفَا[5]

---

(١) أَجِدَّهُمُ: بكسر الجيم وفتحها بمعنى: أبجدٌ منك هذا، ونُصبت على طرح الباء. وعَرِيفاً: عارفاً.

(٢) عِتَاقُ: جمع عتيق. والنُّجُبُ: جمع نجيب. والطُّرُوف: جمع طِرْفٍ (بكسر الطَّاء)، وكلُّها صفات للخيل بمعنى: الكريمة الأصل.

(٣) الرِّيفُ: الموضع المخصب على الماء. يريد نتَّخذكم أعواناً على الحرب، ونستمدُّ من ريفكم العيش.

(٤) نُجَالِدُ: نحارب بالسُّيوف. ومضيفاً: ملحقاً.

(٥) ديوان كعب بن مالك ص ٢٣٥ – ٢٣٧.

فقد أبان كعب ﷺ في هذه الأبيات عن السَّبب في المضيِّ إلى الجهاد وتحقيق الانتصارات وهو الدَّعوة إلى الإسلام والدُّخول فيه، وإخراج النَّاس من دياجير الشِّرك والضَّلال إلى أنوار الهداية والإيمان، لذا كانت هذه الدَّعوة هي السِّمة البارزة في شعر الغزوات، حيث أبان الشُّعراء في كثير من قصائدهم عن حرصهم على دخول النَّاس في هذه الدَّعوة المباركة، والاستنارة بنور الإسلام؛ كي يتفيَّؤا ظلاله، وينعموا بسماحته وعدله.

الفصل الثَّاني :

القيم الفنِّيَّة في شعر الغزوات

ويتضمَّن ما يلي:

أوَّلاً: أثر القرآن الكريم في أسلوب الشِّعر :

من الجوانب البارزة في شعر الغزوات ما اتَّسم به ذلك الشِّعر من الميل إلى الألفاظ والمعاني القرآنيَّة، وذلك من خلال الاقتباس من الذِّكر الحكيم؛ فقد تأثَّر الشُّعراء من الصَّحابة – رضوان الله تعالى عليهم – بالقرآن الكريم وببديع أسلوبه وجمال معانيه، فكان أسلوبه المعجز محلَّ اهتمامهم وإجلالهم؛ ولذا فقد عمدوا إلى الاستنارة بنوره، والإفادة من معانيه السَّامية في أشعارهم؛ وهو ما ظهر جليّاً في اقتباسات حسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم من الصَّحابة – رضوان الله تعالى عليهم – وهو ما سيتَّضح من خلال الوقوف على تلك الأشعار.

● الاقتباس من القرآن الكريم:

توقَّف شعراء الغزوات عند بعض الآيات القرآنيَّة، وتمثَّلوا معانيها، وأدخلوها في أشعارهم التي تتحدَّث عن نصرة الإسلام، والدِّفاع عن العقيدة الإسلاميَّة، والتَّصدِّي للمشركين الذين ما فتئوا ينالون من المسلمين، ويتعرَّضون لهم بالهجاء. وكان من أولئك المتأثِّرين بالقرآن الكريم حسان بن ثابت الأنصاري ﷺ فقد عبَّر شعر الغزوات عنده عن معانٍ إيمانيَّة عميقة، تستلهم رؤيتها الحقَّة من القرآن الكريم؛ ومن ذلك ما يظهر في قوله:

وقُلْتُمُ لَنْ نُرَى، واللهُ يُبْصِرُكُمْ وفِيكُمُ مُحْكَمُ الآياتِ والقِيلِ
محمَّـدٌ والعَزِيـزُ اللهُ يُخْبِرُهُ بِمَا تُكِنُّ سَرِيرَاتُ الأَقَاوِيـلِ[1]

فالبيت الأول مقتبس من قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2]. والبيت الثاني مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[3].

وفي رائية كعب بن مالك ﷺ التي ردَّ بها على قصيدة ضرار بن الخطّاب يقول في مطلعها:

عَجِبْتُ لأَمْرِ اللهِ واللهُ قَادِرٌ عَلَى ما أَرَادَ لَيْسَ لله قَـاهِرُ[4]

فالبيت فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[5].

ويقول كعب ﷺ في بعض معانيه التي تستلهم المعاني القرآنية:

فَإِنْ يَكُ مُوسَى كَلَّمَ اللهَ جهرةً على جَبَلِ الطُّورِ المنيـفِ المعظَّمِ
فقد كَلَّمَ اللهُ النَّـبيَّ محمَّـداً على المَوْضِعِ الأَعْلَى الرَّفِيعِ المسوَّمِ
وإِنْ تَكُ نَمْلُ البَرِّ بالوهم كلَّمَتْ سُلَيْمَانَ ذا الملك الذي ليس بالعمي
فهذا نبيُّ اللهِ أحمـد سبَّحَتْ صِغَـارُ الحَصَى في كفِّهِ بالتَّرنُّمِ[6]

---

(١) ديوان حسَّان بن ثابت ص ٣٠٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٠٣.
(٣) سورة القصص، الآية ٦٩.
(٤) ديوان كعب بن مالك ص ٢٠٠.
(٥) سورة الرعد، الآية ١١.
(٦) ديوان كعب بن مالك ص ٢٧٠.

فالبيت الأول مقتبس من قول الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[1].

أمَّا البيت الثَّاني فيشير إلى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[2].

وحين يصف كعب ﷺ عدَّة الجيش المسلم فإنَّه يجعل في مقدِّمتها التَّقوى؛ فهي خير ما يتمسَّك به المؤمن ليحظى بالنَّصر والتَّأييد من خالقه –عزَّ وجلَّ– وفي ذلك يقول:

تِلْكُمْ مَعَ التَّقْوَى تكونُ لِبَاسَنَا يَوْمَ الهِيَاجِ وكل ساعةِ مَصْدَقِ[3]

ففي هذا البيت إشارة إلى قول الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾[4]

وفي غزوة مؤتة تظهر شجاعة جعفر بن أبي طالب ﷺ وبسالته فهو يطلب الجنَّة وما فيها من نعيم ورضوان، فيقول:

يا حَبَّـــذَا الجنَّةُ واقْتِرَابُها طَيِّبَـــةً وبَـــارِداً شَرَابُـــها[5]

ويصف كعب بن مالك ﷺ دعوة النبي ﷺ لقريش للدُّخول في الإسلام وترك المعتقدات الباطلة التي يعتقدونها فكان جوابهم الإساءة لشخص النبي ﷺ؛ حيث يقول كعب:

وكَانَ رَسُولُ اللهِ قَدْ قَالَ أَقْبِلُوا فَوَلَّوْا وقَالُوا إنَّما أَنْتَ سَاحِرُ

---

(١) سورة النِّساء، الآية ١٦٤.

(٢) سورة النَمل، الآية ١٨.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص٢٤٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٢٦.

(٥) السِّيرة النَّبويَّة ٢/٣٧٨.

ففي هذا المعنى[١] إشارة إلى قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾[٢].

وفي غزوة مؤتة وقف عبد الله بن رواحة ﷺ ذلك الموقف البطولي، وذلك حين خاطب نفسه راجياً منها أن تطلب الشّهادة في سبيل الله، وترجو ما عند الله – عزّ وجلّ – حيث يقول:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ طَائِعَةً أَوْ لا لَتُكْرَهِنَّهْ
قَدْ طَالَمَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ جَعْفَرُ مَا أَطْيَبَ رِيحَ الجَنَّهْ![٣]

حيث يشير في الشّطر الثّاني من البيت الثّاني إلى المعنى الوارد في قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾[٤].

وفي شعر حسّان بن ثابت ﷺ تظهر رباطة المجاهد المسلم المتوكّل على الله، الذي لا يخشى كثرة عدد الأعداء ولا عُدَدَهم، إذ يقول:

فَمَا نَخْشَى بِحَوْلِ اللهِ قَوْماً وإن كَثُرُوا وأَجْمَعَتِ الزُّحوفُ
إذا مَا أَلَّبُوا جَمْعاً عَلَيْنَا كفانا حدَّهم رَبٌّ رؤوفُ
لَقِينَاهُمْ بِها لَمَّا سَمَوْنَا ونحن عِصَابَةٌ وهُمُ أُلُوفُ[٥]

ففي هذه الأبيات يظهر أثر المعاني القرآنية، حيث يشير البيت الأول إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكَهُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٠١.
(٢) سورة ص، الآية ٤.
(٣) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥٣.
(٤) سورة الواقعة، الآية ٨٨– ٨٩.
(٥) ديوان حسّان ص ٣٥٢.

اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾[1].

وفي البيت الثاني إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

ويشير عبد الله بن رواحة ﷺ إلى جهاد المسلمين، فيقول:

نُجَالِدُ النَّاسَ عَنْ عِرْضٍ فَنَأْسِرُهُمْ فِينَا النَّبِيُّ، وفِينَا تَنْزِلُ السُّوَرُ[3]

فلفظة (سورة) في الشَّطر الثَّاني مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[4].

ويصف كعب بن مالك ﷺ خيول المسلمين التي أُعدَّت لحرب المشركين في موقعة الخندق، وما اتَّصفت به من الصِّفات، فيقول:

ونُعِدُّ لِلأَعْدَاءِ كُلَّ مُقَلَّصٍ وَرْدٍ، ومَحْجُـولَ القَوَائِمِ أَبْلَقِ

أَمَرَ الإِلَهُ بِرَبْطِهَـا لِعَدُوِّهِ فِي الحَرْبِ إِنَّ اللهَ خيرُ مُـوَفِّقِ[5]

فهذا المعنى فيه إشارة إلى قول الحقِّ – تبارك وتعالى –: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[6].

وعلى هذا النَّحو فقد ظهر أثر القرآن الكريم في أساليب الشُّعراء، الذين تحدَّثوا عن الغزوات، ونافحوا عن عقيدتهم، وتصدَّوا للمشركين في كثير من

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٩-١٠.

(٣) ديوان عبد الله بن رواحة ص ٨٣.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٢.

(٥) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٤.

(٦) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

المواقع، وقد أعطى ذلك التّأثُر شعرهم قوّةً في التّعبير، وأسلوباً سهلاً أزاح عن طريقهم خشونة الألفاظ الجاهليّة التي كانت سمةً بارزةً قبل ظهور الإسلام.

ثانياً: اللُّغة الشّعريّة:

اللُّغة عنصر رئيس من عناصر الإبداع الشّعري؛ وهي الوسيلة التي تفصح عن مدلول الشّاعر ومراده، وذلك من خلال ما يبثُّه في شعره من مشاعر وشجون.

والشّعر الجيّد هو الذي يمتاز بتجانس الألفاظ والمعاني؛ فترقُّ تلك الألفاظ في المواضع التي تتطلّب الرِّقّة، وتجزل وتشتدُّ في المواضع التي تتطلّب الشّدّة والفخامة؛ وهو ما دعا إليه القاضي الجرجاني في قوله: «أرى لك أن تقسّم الألفاظ على رتب المعاني»[(١)].

والمتأمّل في ألفاظ شعر الغزوات يجد أنّها اتّسمت في جانب كبير منها بالجزالة، وقد حدّد النُّقّاد ملامح اللفظ الجزل في الكلام بأنّه هو الذي ((يكون متيناً على عذوبته في الفم، ولذاذته في السّمع))[(٢)]، فلا تشوبه وحشيّة أو وعورة، كما بيّنوا المواضع التي يستعمل فيها اللفظ الجزل، ومنها ما ((يكون في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التّهديد والتّخويف، وأشباه ذلك))[(٣)].

ومن أمثلة ذلك ما يظهر في قصيدة كعب بن مالك ﷺ في موقعة الخندق، التي يقول فيها:

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمَعْمِعُ بَعْضُهُ ... بَعْضاً كَمَعْمَعَةِ الأَبَاءِ المُحْـرَقِ

(١) الوساطة بين المتنبّي وخصومه ص ٢٤.

(٢) المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر ١/١٨٥.

(٣) المصدر السّابق ١/١٨٥.

فَلَيْأْتِ مَأْسَدَةٌ تُسَنُّ سُيوفُهـا بينَ المِذَادِ وبينَ جزْعِ الخَنْـدَقِ
نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا قُـدُماً، ونُلْحِقُها إِذَا لَمْ تَلْحَقِ
فَتَرَى الجَمَاجِمَ ضَـاحِياً هَامَاتُها بَلْـــهَ الأَكُفَّ كَأَنَّها لم تُخْلَقِ
نَلْقَى العَـدُوَّ بِفَخْمَةٍ مَلْمُـــومَةٍ تنفي الجُمُوعَ كَقَصْدِ رَأْسِ المَشْرِقِ
ونُعِـــدُّ للأَعْدَاءِ كُـلَّ مُقَلَّصٍ وَرْدٍ ومَحْجُولِ القَـوَائِمِ أَبْلَـقِ
تَرْدَى بِفُـــرْسَانٍ كَأَنَّ كُمَاتَهُمْ عِنْدَ الهِيَاجِ أُسُـــودُ طَلٍّ مُلْثِقِ[1]

حيث يصف كعب رضي الله عنه حماسة جيش المسلمين، واستعدادهم للقاء المتحزِّبين من المشركين في يوم الخندق، وقدرتهم على إلحاق الهزيمة بهم إذا قدموا لحرب المسلمين؛ مبيِّناً ما امتاز به ذلك الجيش من التَّعوُّد على خوض المعارك ومنازلة الأعداء، وإعمال السُّيوف فيهم؛ حيث يظهر دور الفرسان المسلمين على خيولهم المضمَّرة المعدَّة للقتال فكأنَّهم أسود يحمون عرينهم، ويدافعون عنه بكلِّ بسالة، وقد اعتمد الشَّاعر في وصف تلك المشاهد الحماسيَّة على الألفاظ الجزلة، ومن تلك الكلمات (ضرب، يمعمع، المحرق، مأسدة، سيوفها، الجماجم، هاماتها، العدو، بفخمة، ملمومة، مقلَّص، ورد، محجول، أبلق، بفرسان، كماتهم، الهياج، أسود، ملثق) فهي ألفاظ تتَّسم بالقوَّة، وشدَّة الجرس، وتوحي بجوِّ المعركة، وما يكتنفه من اصطدام الجيوش، وصليل السُّيوف، وشدَّة إعمالها في الأعداء.

ويستخدم العبَّاس بن مرداس رضي الله عنه الألفاظ الجزلة في وصف فتح مكَّة، وما تحقَّق فيه للمسلمين من عزٍّ ومنعة؛ يقول:

مِنَّا بِمَكَّةَ يومَ فَتْحِ محمَّـــدٍ أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ البِطَاحُ مُسَوَّمُ

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٥ – ٢٤٦.

في مَنْزِلٍ نَبَتَتْ بِهِ أَقْدَامُهُـــمْ ضَنْكٍ كَأَنَّ الهَامَ فيهِ الحَنْتَـــمُ
جَرَّتْ سَنَابِكَها بنجدٍ قَبْلَهـــا حتَّى اسْتَقَادَ لها الحِجَازُ الأَدْهَمُ[1]

فالشّاعر هنا يصوِّر ما دار يوم فتح مكّة من حشد الجيوش المتأهّبة للفتح، ومنهم قومه من بني سُليم الذين شاركوا بفرسانهم في ذلك الفتح، وأظهروا ثباتهم ورباطة جأشهم في تلك المناسبة العظيمة، وقد ألبس الشّاعر تلك المعاني ألفاظاً تناسبها في القوّة والشّدّة، وتوحي بصور البسالة والإقدام؛ حيث اعتمد في ذلك على ألفاظ اتّسمت بالمتانة والجزالة، ومن تلك الألفاظ: (تسيل، البطاح، مسوَّم، ضنك، الهام، الحنتم، جرّت، سنابكها، استقاد، الأدهم) فهذه الألفاظ ترسم صورةً تموج بالحركة والقوّة، لتجسّد ما شهده ذلك الفتح من قوّة وشجاعة من قبل جيش المسلمين.

ومن الجوانب البارزة في شعر الجهاد شيوع الألفاظ الإسلاميّة التي جاءت مع الدِّين الجديد، حيث تأثّر بها الشُّعراء، وأدخلوها في معجمهم الشّعري؛ فجاءت قصائدهم الشّعريّة تحفل بتلك الألفاظ، التي هي مظهر من مظاهر الشّعر في عصر صدر الإسلام[2]. ومن أمثلة ذلك ما يظهر في قول حسّان بن ثابت ﷺ في موقعة الخندق:

وكَفَى الإِلَـــهُ المؤمنين قِتَالَهُمْ وأَثَابَهُمْ في الأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ
مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا فَفَرَّجَ عَنْهُمُ تَنْزِيلُ نَصٍّ مَلِيكِنَا الوَهَّـــابِ
وأَقَرَّ عَيْنَ مُحَمَّدٍ وصِحَابِـــهِ وأَذَلَّ كُلَّ مُكَذِّبٍ مُرْتَـــابِ

(١) السِّيرة النَّبويَّة ٢/٤٢٦.

(٢) انظر: الشّعر الإسلامي في صدر الإسلام د. عبد الله الحامد ص ١٠٥، شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام لأيهم القيسي ص ٣١٧، الأدب في عصر النُّبوّة والرّاشدين د. صلاح الدِّين الهادي ص ٢٥٩.

مُسْتَشْعِرٍ لِلْكُفْـرِ دُونَ ثِيَابِهِ والكُفْرُ ليسَ بِطَاهِرِ الأَثْوَابِ[1]

فالشَّاعر يشير إلى ما آلت إليه موقعة الخندق من تفرُّق جموع المشركين، وتشتُّت حشودهم، ورجوعهم خائبين، وقد كفى الله المؤمنين القتال، وأثابهم الأجر على ما بذلوا في مواجهة الكفَّار، حيث كانت العزَّة للمسلمين، والذِّلَّة والخزي للكافرين.. وقد جاء النَّصُّ يزخر بالألفاظ الإسلاميَّة، ومن ذلك (الإله، المؤمنين، أثابهم، الأجر، ثواب، تنزيل، نص، مليكنا، الوهَّاب، صحابه، مكذِّب، مرتاب، الكفر، طاهر) فهذه الألفاظ أبانت عن المعنى العام الذي قصد إليه الشَّاعر، وأكسبته دلالةً جديدةً، تدلُّ على تأثُّر حسَّان ﷺ بالمعاني الإسلاميَّة، والقيم الدِّينيَّة الَّتي أتى بها الدِّين الحنيف.

ويشير كعب بن مالك ﷺ إلى أنَّ الدَّعوة إلى الإسلام، والحرص على دخول النَّاس فيه هو السَّبب في مسيرة الجهاد، وانطلاق المسلمين لإعلاء راية الحقِّ؛ حتَّى ينتشر الإسلام في شتَّى الأصقاع؛ يقول:

نُجَـالِدُ مَا بَقِينَـا أَوْ تُنِيبُوا إِلَى الإسلامِ إِذْعَـاناً مُضِيفَـا
نُجَـاهِدُ لا نُبَـالِي مَنْ لَقِينَا أَأَهْلَكَنَا التِّـلادَ أَم الطَّرِيفَـا
لأَمْرِ اللَّـهِ والإِسْـلامِ حَتَّى يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَـدِلاً حَنِيفَـا[2]

فقد اعتمد الشَّاعر في أبياته على القاموس الإسلامي، واختار منه ما يعبِّر عن مضمونه بما يناسبه من الألفاظ الإسلاميَّة؛ ومنها (الإسلام، نجاهد، أمر الله، الدِّين، معتدلاً، حنيفاً).

---

(١) ديوان حسَّان بن ثابت ص ١٢٠.

(٢) ديوان كعب بن مالك ص ٣٣٦ – ٣٣٧.

ومن سمات التّراكيب في شعر الجهاد غلبة البساطة والعفويّة على هذا الشّعر، فهو شعر مطبوع، يبتعد عن التّعقيد والالتواء، وذلك يعود إلى أثر الثّقافة الإسلاميّة النّابعة من تأثير القرآن الكريم والحديث النّبوي، وصفاء اللّغة التي ورد بها، فهي لغة منتقاة، تبتعد عن الخشونة، كلُّ ذلك أدّى إلى وضوح التّراكيب في شعر الجهاد وحسن تأليفها، وبعدها عن التّنافر والتّعقيد، ومن أمثلة ذلك ما يظهر في قصيدة كعب بن مالك ﷺ التي نظمها يوم الخندق، يقول:

وسَائِلَةٍ تُسائلُ ما لَقِينَا ... ولو شَهِدَتْ رَأَتْنَا صَابِرِينَا
صَبَرْنَا لا نَرَى لِلّهِ عِدْلاً[1] ... عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَا
وكانَ لنا النَّبيُّ وَزِيرَ صِدْقٍ ... بِهِ نَعْلُو البَرِيَّةَ أَجْمَعِينَا
تُقَاتِلُ مَعْشَراً ظَلَمُوا وعَقُّوا ... وكانوا بالعَدَاوَةِ مُرْصِدِينَا[2]
نُعَاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا ... بِضَرْبٍ يُعْجِلُ المُتَسَرِّعِينَا
لِنَنْصُرَ أَحْمَداً واللّهَ حتَّى ... نكونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَا[3]

حيث يصف كعب ﷺ ما أصاب المسلمين في موقعة الخندق التي تحزّب فيها المشركون واليهود والقبائل الموالية لهم، وساروا لحرب المسلمين، الذين واجهوا أولئك المتحزّبين بالصّبر، واليقين، والتّوكل على الله – عزّ وجلّ – فكان النّصر حليفهم، وكانت الهزيمة والذّلّة من نصيب تلك الأحزاب التي تحالفت وتآمرت من أجل العدوان على المسلمين.. وقد عبّر الشّاعر عن تلك

(١) العِدْلُ: المِثْلُ.
(٢) المُرْصِدُ: المُعِدُّ للأمر عُدَّته.
(٣) ديوان كعب بن مالك ص ٢٧٩ – ٢٨٠.

المعاني بألفاظ سهلة واضحة تتلاءم مع طبيعة الموضوع، وصاغها في عبارات متآلفة متجانسة، ومن تلك العبارات: (ولو شهدت رأتنا صابرينا، على ما نابنا متوكّلينا، وكان لنا النّبي وزير صدق، نقاتل معشراً ظلموا وعقّوا، نعاجلهم إذا نهضوا إلينا) حيث يظهر ترابط تلك العبارات وتماسكها، وقدرتها على التّعبير عمّا يرمي إليه الشّاعر بوضوح. وهذه السّمة تلحظ بوضوح في أغلب الشّعر الذي صاغه الشُّعراء حول الغزوات[1]، حيث تأنّقوا في صوغ عباراتهم، والعناية بأساليبهم، وبخاصّة لأنّ هذا الشّعر يردُّ على المشركين، وينقض قصائدهم التي تعرّضوا فيها للمسلمين[2].

ثالثاً: الصُّورة الفنّيّة:

تعدُّ الصُّورة من أهمّ العناصر الفاعلة في القصيدة الشّعريّة، لكونها من الوسائل الفنّيّة التي يعتمد عليها الشُّعراء في التّعبير عن أفكارهم، لتقريب المعاني وزيادة توضيحها للتّأثير في السّامع. والصُّورة بناءً على ذلك «ليست زينةً شكليّةً، أو حليةً مصطنعةً، وإنّما أداة أساسيّة لتوصيل الخبرة والتّعبير عن الرُّؤية»[3].

وتظهر الصُّورة بشكل أوضح من خلال «الشّكل الفنّي الذي تتّخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشّاعر في سياق خاص ليعبّر عن جانب من

---

(١) راجع مثلاً: ديوان حسّان بن ثابت ص ٧١-٧٥، ٩٣، ٩٦، ١١٩، ١٢٠، ديوان عبدالله ابن رواحة ص ١٣٨، ١٤٧، ديوان كعب بن مالك ص ٢٣٤-٢٣٧، ٢٥٥-٢٥٨.

(٢) راجع مثلا: السّيرة النّبويّة ٢/٢٥٤ – ٢٥٥، ٢٥٧ – ٢٥٨، ديوان عبد الله بن الزّبعرى ص ٢٩-٣٠، ٣٧ - ٣٩، ٤٠ - ٤٣.

(٣) جماليّات القصيدة المعاصرة د. طه وادي ص ٢١٢.

جوانب التّجربة الشّعريّة))[١] معتمداً في ذلك على وسائل التّعبير المختلفة في رسم مشاهداته ونظرته الخاصّة للأشياء.

وتأتي الفنون البيانيّة في مقدّمة الصُّور التي استعان بها الشُّعراء في شعر الغزوات، وهي صور عمادها التّشبيهات، والاستعارات، حيث لجأ إليها الشُّعراء في قصائدهم لما تمثّله من قيمةٍ فنّيّة عالية.

ويعدُّ التّشبيه من أكثر الفنون البيانيّة جرياناً في الشّعر، فهو من أقدم صور البيان وأقربها إلى الفهم والأذهان، وبه يزداد المعنى وضوحاً ويكتسب تأكيداً[٢].

ومن الصُّور التّشبيهيّة ما يظهر في قول كعب بن مالك ﷺ في موقعة بدر، حيث صور مسيرة جيش المسلمين لملاقاة المشركين، وكأنّهم أسود تزأر تنتظر فريستها، يقول:

فَسَارُوا وسِرْنَا فَالْتَقَيْنَا كأنّنا أُسُودُ لِقَاءٍ لا يُرَجَّى كَلِيمُها[٣]

كما صوَّر حسّان بن ثابت ﷺ استعداد المسلمين للقتال، فقال:

فِتْيَانُ صِدْقٍ كاللُّيوثِ مَسَاعِرٌ مَنْ يَلْقَهُمْ يَوْمَ الهِيَاجِ[٤] يُعَرَّدِ[٥]

حيث يصف فرسان المسلمين الذين يقفون في مقدّمة الصفوف للدّفاع عن عقيدتهم، والتّضحية من أجلها، ولذا أطلق عليهم فتيان صدق، وشبههم

---

(١) الاتّجاه الوجداني في الشّعر العربي المعاصر د. عبد القادر القط ص ٣٩١.

(٢) انظر: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده لابن رشيق ٢٨٧/١، تحقيق: د. محمد قرقزان.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص ٢٦٦.

(٤) يوم الهياج: أي يوم الوقائع والمعارك الشّديدة، يعرّد: يفرُّ.

(٥) ديوان حسّان بن ثابت ص ٩٤.

بالأسود الضَّارية التي تدافع عن عرينها بكل حماسةٍ وعزيمة، وهـــم مع ذلك يسعرون نار الحرب، التي لا يقوى الأعداء على خوضها، بل يفرُّون منها لجبنهم وخورهم.

كما شبّه شعراء الغزوات أعداءهم من المشركين بالنَّعام، الذي يضرب به المثل في الجبن، ولمَّا جاء من أمثال العرب قولهم: (أَندُّ من نعامة)[1] أي أَنْفَر. حيث شبَّه كعب بن مالك ﷺ فرار المشركين يوم بدر بالنَّعام، فقال:

فَأَتَاكَ فَلُّ المشركين كَأَنَّهُمْ ... والخَيْـــلُ تَنْفُنُهُم نَعَـــامٌ شُرَّدُ[2]

أمَّا حسَّان ﷺ فقد رأى تصويراً آخر لفرار المشركين في غزوة بدر، وذلك حين شبَّههم بالإبل التي يسير بعضها في إثر بعض، مبيِّناً هروبهم من أرض المعركة، ورجوعهم على أعقابهم بعد أن حمي الوطيس، وأحاط بهم المسلمون من كلِّ جانب، حيث يقول في ردِّه على قصيدة ابن الزِّبعرى:

إِذْ تُولُّونَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ... هَرَباً في الشِّعْبِ أَشْبَاهَ الرَّسَلْ[3]

أمَّا فرسان المسلمين الذين يواجهون الأعداء بكلِّ بسالة فقد شبَّههم حسَّان ﷺ بالصُّقور، في قوَّة بأسهم، ونفاذ بصرهم، وتمكُّنهم من خصومهم، يقول:

لَهُ خَيْلٌ مُجَنَّبَةٌ تَعَـــادَى[4] ... بِفُرْسَانٍ عَلَيها كَالصُّقُورِ[5]

ويشير حسَّان بن ثابت ﷺ إلى مكانة خُبَيب بن عدي ﷺ وجهاده من

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ٣/٤١٣، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) ديوان كعب بن مالك ص ١٩١.

(٣) ديوان حسَّان بن ثابت ص ١٨١.

(٤) الخيلُ المجنَّبَةُ: المقودةُ. وتعادى: تسرع.

(٥) ديوان حسَّان بن ثابت ص ٢٤٥.

أجل نصرة الإسلام، فيقول:[1]

صَقْراً تَوَسَّطَ في الأَنْصَارِ مَنْصِبُهُ حُلْوَ السَّجِيَّةِ مَحْضاً غَيْرَ مُؤْتَشِبِ[2]

وفي معركة بدر لم يجد كعب بن مالك ﷺ بدّاً من ذكر مسيرة ذلك الجيش المسلم، يقدمه الرّسول الكريم ﷺ حيث يحثّهم على الجهاد، ويقوّي عزائمهم، وهم يصغون إليه، ويطيعونه في كلّ ما يقول، وقد لجأ كعب ﷺ إلى الصُّورة التّشبيهيَّة في هذا المقام، وذلك عندما شبَّه النَّبيَّ ﷺ بالبدر، الّذي يضيء للآخرين فينير لهم طريقهم، ويدلّهم إلى طريق الرّشاد والفلاح، يقول:

نَمْضِي ويَذْمُرنا[3] في غَيْرِ مَعْصِيَةٍ كأنّه البَدْرُ لم يُطْبَعْ عَلَى الكَذِبِ[4]

وفي صورة تشبيهيَّة أخرى يشبِّهه ﷺ بالشِّهاب، وهو يتوسَّط المسلمين، يقول كعب:

فِينَا الرَّسُولُ شِهَابٌ ثَمَّ يَتْبَعُه نورٌ مضيءٌ له فَضْلٌ على الشُّهُبِ[5]

كما استعان الشُّعراء بالاستعارات الجميلة لإبراز معانيهم في حلَّة قشيبة، وإيرادها في شكل تشتاق إليه النُّفس، وتأنس به. ومن تلك الصُّور ما عبَّر عنه حسَّان بن ثابت ﷺ في يوم بدر، وذلك في وصف هزيمة حكيم بن حزام بن خويلد[6] في ذلك اليوم، حيث قال:

---

(١) هو خُبَيْب بن عديّ بن مالك بن عامر الأوسي الأنصاري، شهد بدراً، وقَتَل الحارث بن عامر بن نوفل، واستشهد في عهد النَّبيّ ﷺ. (انظر: الإصابة لابن حجر ١٨٥/٣).

(٢) ديوان حسَّان بن ثابت ص ٢٢٥.

(٣) يذمرنا: يحضُّنا ويدفعنا.

(٤) ديوان كعب بن مالك ص ١٧٥.

(٥) المصدر السَّابق ص ١٧٤.

(٦) تقدَّمت ترجمته.

نَجَّى حَكِيماً يَوْمَ بَدْرٍ رَكْضُهُ كَنَجَاءِ مُهْرٍ مِنْ بَنَاتِ الأَعْوَجِ
لَمَّا رَأَى بَدْراً تَسِيلُ جِلَاهَهَا[1] بِكَتَائِبٍ مِلأَوْسِ أَوْ مِلْخَزْرَجِ[2]

فقد جعل حسَّان ﷺ في البيت الثَّاني جِلَاه بدرٍ تسيل رجالاً من كثرة كتائب الأوس والخزرج على سبيل الاستعارة؛ وذلك بما تحمله من عمق في تصوير تلك الكتائب؛ التي قدمت لنصرة الإسلام ودحر الشِّرك.

وفي تصوير المعارك تظهر جليّاً براعة الشُّعراء في التقاط صورهم التي رسموا من خلالها مشاهد حيَّة لما دار في أرض المعركة من مواقف وأحداث، ومن ذلك ما عبَّر عنه كعب بن مالك ﷺ في موقعة بدر؛ عندما وصف قتلى المشركين الذين سقطوا في أرض المعركة؛ فقال:

وعُتْبَةُ وابْنُــه خَــرَّا جميــعاً وشَيْبَةُ عَضَّهُ السَّيْــفُ الصَّقِيلُ
وهَام بني ربيعــةَ سَائلُــوها ففي أَسْيَافِنــا منها فُلُــولُ[3]

حيث أشار كعب ﷺ إلى مقتل سادة قريش؛ ومنهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ابن عبد شمس؛ اللذان قتلا في بدر؛ فقد لقيا جزاء عداوتهما ومحاربتهما للمسلمين، وفي التَّعبير عن مصرع شيبة تصوير بديع؛ وذلك حين قال: ((وشيبة عضَّه السَّيف الصَّقيل)) فقد شبَّه السَّيف بحيَّة تعضُّ، وتنهش، وتلحق الضَّرر بمن تريد؛ حيث أوحى هذا التَّعبير بالأثر الذي أحدثه السَّيف، وما كان له من وقع مــــؤلم في أجساد المشركين. وفي قوله: ((وهَام بني ربيعةَ سَائلُــوها)) إحالة للسُّؤال من العاقل إلى ما لا يعقل؛ إذ الخطاب يكون في حقيقته إلى أولئك

(١) الجِلاَه: جمع جلهة، وجلهتا الوادي: جانباه. وملأوسِ أو ملخزرج: أي من الأوس ومن الخزرج على سبيل التَّسهيل.

(٢) ديوان حسَّان بن ثابت ص ٢٩٩.

(٣) ديوان كعب بن مالك ص ٢٥٣.

المشركين، وليس إلى هاماتهم التي تطايرت في يوم بدر، وهنا يكون التّعبير أبلغ وأقوى تأثيراً من جهة الاستدلال على ما حلّ بالمشركين، وما أصابهم في تلك الموقعة الحاسمة.

ويصف العبّاس بن مرداس السُّلمي ما كان من مشاركة بني سُليم في فتح مكّة بألف فارس جاءوا لنصرة النّبيّ ﷺ وتحقيق الفتح المنتظر، يقول:

مِنّا بمكّة يومَ فَتْحِ محمَّـــدٍ ألْفٌ تَسيلُ بِهِ البِطَاحُ مُسَوَّمُ[1]

لقد كان العدد الذي شـــارك المسلمين من بني سُليـــم كثيراً في نظر الشّـــاعر، فهم (معلّمون) ومتدرّبون على الحرب وخوض غمارها من جهة، وقد سالت بهم تلك الأرض السّهلة المتّسعة لكثرتهم ووفرة أعدادهم من جهة أخرى، وهنا يبرز دور التّصوير الذي لجأ إليه العبّاس بن مرداس في قوله: (ألف تسيل به البطاح) إذ لا تسيل الأرض ماءً، بل تسيل رجالاً من بني سُليم ملأوا بكتائبهم تلك البطاح، وهو ما يُبرز أهمّيّة تلك الحشود الّتي توافرت لنصرة المسلمين في فتح مكّة.

وفي موقعة مؤتة، وأمام جيوش الرُّوم الجرّارة التي واجهت المسلمين في أرض المعركة، لم يجد عبد الله بن رواحة ﷺ بدّاً من مخاطبة نفسه، وحثّها على الصّبر والعزيمة، والتّضحية من أجل النّصر أو الشّهادة في سبيل الله، يقول:

يَـــا نَفْسُ إلاّ تُقْتَلِي تَمُـــوتِي هذا حِيَاضُ المَوْتِ قد صَلِيتِ
إنْ تَسْلَمِي اليَوْمَ فَلَنْ تَفُوتِي أَو تُبْتَلِي فَطَالَمَـــا عُـــوفِيتِ[2]

فقد جعل الشّاعر من نفسه إنساناً مقابلاً له يجيد لغة الحوار والخطاب،

(١) السّيرة النّبويّة ٢/٤٢٦.

(٢) ديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥٤.

والجدال والإقناع، وذلك ليبثَّ ما في وجدانه من مشاعر، ويعـالج ما في داخله من إحجام، قاصداً في نهاية المطاف أن تتشجَّع نفسه، وتُقدم على ذلك الأمر الذي جاءت من أجله، وهو الجهاد والتَّضحية في سبيل الله.

ويصوِّر العبَّاس بن مرداس ﷺ بطولة قومه وشجاعتهم، وهم يتصدُّون للمشركين في موقعة حُنين، فيقول:

إِذْ نَرْكَبُ المَوْتَ مُخْضَرّاً بَطَائِنُهُ والخَيْلُ يَنْجَابُ عَنْها سَاطِعٌ كَدِرُ[1]

فالشَّاعر-هنا-وفي سياق تجسيد شجاعة قومه وفروسيَّتهم يلجأ إلى التَّصوير، وذلك حين أحال الأمور المعنويَّة إلى أمور حسِّيَّة، تشاهد، وتُركب، ويُتعامل معها، وهو ما يظهر فيقوله: (إذ نركب الموت مخضرّاً بطائنه) فقد أحال (الموت) وهو أمر معنوي إلى محسوس، وجسَّده بشكل ملموس، ليُوحي من خلال ذلك بما امتاز به أولئك الفرسان من ثبات، وعزيمة، وإقدام في أرض المعركة.

(١) السِّيرة النَّبويَّة ٢/٤٦٧.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصَّالحات، والصَّلاة والسَّلام على أفصح العرب قاطبة سيِّد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد سارت هذه الدِّراسة في تتبُّع شعراء غزوات النَّبيِّ ﷺ، وما قيل في تلك المعارك الخالدة من أشعار، وما حفلت به من روح الحماسة والعزيمة، والحرص على الدِّفاع عن الإسلام، ومنافحة خصومه، والتَّصدِّي لهم في كلِّ الأشعار التي نظموها من أجل الإساءة إلى الدَّعوة الإسلاميَّة.

وقد اشتملت هذه الدِّراسة على فصلين أساسين؛ أحدهما بعنوان: (الشِّعر في مواكبة الغزوات)، وفيه عرض البحث لغزوات النَّبيِّ ﷺ، وما قيل فيها من أشعار، وما حفل به ذلك الشِّعر من ردود على شعراء المشركين؛ حيث كانت غزوة (بدر) هي أولى الغزوات التي نالت اهتمام الشُّعراء، ثم تلتهـــا غزوة (أحد)، واتَّسم فيها الشِّعر بالكثرة لما شهدته من أحداث جعلت شعراء المشركين يفخرون على المسلمين؛ ولذا فقد جاءت الرُّدود من قبل شعراء المسلمين لتخرس ذلك الشِّعر، وتفصح عن عيوبه. وفي غزوة (الخندق) وقف الشِّعر يشير إلى حماسة المسلمين وروحهم المعنويَّة في مواجهة تلك الأحزاب التي قدمت لحرب المسلمين، ولكنَّهم باءوا في نهاية أمرهم بسوء العاقبة والخسران. وفي غزوة (مؤتة) وقف الشِّعر يستنهض الهمم، ويقوِّي العزائم، ويشير إلى ما ينشده المسلمون من النَّصر أو الشَّهادة في سبيل الله. وأخيراً جاء (فتح مكة) فكان بشارة عظيمة للمسلمين وطريقاً لنشر الإسلام في تلك الأنحاء؛ حيث مجَّد الشُّعراء ذلك الفتح وأبانوا عن عظمته، وأهمِّيَّته للمسلمين.

أمَّا الفصل الثَّاني فكان بعنوان: (القيم الفنِّيَّة في شعر الغزوات) وفيه تناولت الدِّراسة ما اتَّسم به ذلك الشِّعر من قيم فنِّيَّة في جانب اللُّغة الشِّعريَّة، والصُّورة الفنِّيَّة، وبيان أثر القرآن الكريم في شعر الغزوات.

هذا وأسأل الله تعالى التَّوفيق والسَّداد، وأستمدُّ منه العون والتَّأييد.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

فهرس المصادر والمراجع

١– القرآن الكريم.
٢– الاتّجاه الوجداني في الشّعر العربي المعاصر: د. عبد القادر القط، دار النّهضة العربيّة للطباعة والنّشر، بيروت، الطبعة الثّانية ١٩٨١م.
٣– الأدب الإسلامي في عهد النُّبوّة وخلافة الرّاشدين: د. نايف معروف، دار النّفائس للطباعة والنّشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
٤– الأدب في عصر النُّبوّة والرّاشدين: د. صلاح الدّين الهادي، النّاشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطّبعة الرّابعة ١٤٠٩هـ
٥– أساس البلاغة: لأبي القاسم محمود بن عمر الزّمخشري، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: عبد الرّحيم محمود.
٦– الاستيعاب في أسماء الأصحاب: لابن عبد البر القرطبي، مطبعة السّعادة، القاهرة ١٣٨٢هـ.
٧– أسد الغابة في معرفة الصّحابة: لعزّ الدّين ابن الأثير، دار الشّعب، القاهرة، بدون تاريخ.
٨– الإسلام والشّعر: د. فايز ترحيني، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
٩– الإصابة في تمييز الصّحابة: لابن حجر لابن حجر العسقلاني، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ١٩٧٠م، تحقيق: علي محمد البجاوي.
١٠– الأغاني: لأبي الفرج الأصبهاني، دار الشعب، القاهرة، ١٣٨٩، تحقيق: إبراهيم الأبياري.
١١– تاريخ الأدب العربي: د. عمر فرُّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٤م.
١٢– تاريخ الأدب العربي– العصر الإسلامي –: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة السّابعة ١٩٨٤م.

١٣–تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ: د. محمَّد السَّيِّد الوكيل، دار المجتمع للنَّشر والتَّوزيع، جدَّة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٤–جماليَّات القصيدة المعاصرة: د. طه وادي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.

١٥–دراسات في أدب الدَّعوة الإسلاميَّة: د. محمود حسن زيني، مطبوعات مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٢هـ.

١٦–ديوان حسَّان بن ثابت، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م، تحقيق: د. سيِّد حنفي حسنين.

١٧–ديوان عبد الله بن رواحة – ودراسة في سيرته وشعره –: د. وليد قصَّاب، دار الضِّياء للنَّشر والتَّوزيع، عمَّان، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٨هـ.

١٨–ديوان كعب بن مالك الأنصاري – دراسة وتحقيق –: د. سامي مكِّي العاني، منشورات مكتبة النَّهضة، بغداد، الطَّبعة الأولى ١٩٦٦م.

١٩–ديوان النَّابغة الجعدي، المكتب الإسلامي للطِّباعة والنَّشر، دمشق، بدون تاريخ، تحقيق: عبد العزيز رباح.

٢٠–سير أعلام النُّبلاء: لشمس الدِّين الذَّهبي، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤٠١هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون.

٢١–السِّيرة النَّبويَّة: لابن هشام، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الثَّانية ١٣٧٥هـ، تحقيق: مصطفى السَّقا وزميليه.

٢٢–شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

٢٣–الشِّعر الإسلامي في صدر الإسلام: د.عبد الله الحامد، الطبعة الثَّانية ١٤٠١هـ.

٢٤–شعر عبد الله بن الزِّبعرى: د. يحيى الجبوري، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

٢٥–شعر العقيدة الإسلاميَّة في عصر صدر الإسلام حتى سنة ٢٣هجريَّة: د. أيهم القيسي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٢٦–شعر الفتوح الإسلاميَّة في صدر الإسلام: د. النُّعمان القاضي، الدَّار القوميَّة للطباعة والنَّشر، القاهرة ١٣٨٥هـ.

٢٧–شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه: د. يحيى الجبُّوري، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.

٢٨–صحيح مسلم: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطَّبعة الأولى ١٣٧٥هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٩–الصُّورة والبناء الشِّعري: د. محمد حسن عبد اللّه، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م.

٣٠–العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده: لابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، تحقيق: د. محمد قرقزان.

٣١–في أدب الإسلام – عصر النُّبوَّة والرَّاشدين وبني أميَّة–: د. محمَّد عثمان علي، دار الأوزاعي للطباعة والنَّشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

٣٢–القاموس المحيط، لمجد الدِّين محمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسَّسة الرِّسالة للطِّباعة والنَّشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.

٣٣– لسان العرب: لابن منظور المصري، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

٣٤–المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لضياء الدِّين ابن الأثير، دار نهضة مصر للطباعة والنَّشر ١٩٧٣م، تعليق: د.أحمد الحوفي وزميله.

٣٥–مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمَّد بن إبراهيم الميداني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٨م، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم.

٣٦–المسند: للإمام أحمد بن حنبل، دار المعارف، القاهرة ١٣٧٤هـ، شرح: أحمد محمد شاكر.

٣٧– المصباح المنير: لأحمد بن محمد بن علي الفيُّومي المقري، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٧م.

٣٨–معجم ألفاظ القرآن الكريم: عن مجمع اللغة العربيَّة بالقاهرة، مطابع الأوفست ١٤٠٩هـ.

٣٩- معجم البلدان: لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ١٣٧٤هـ.
٤٠- المعجم الوسيط، عن مجمع اللغة العربيَّة بالقاهرة، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، الطبعة الثَّانية ١٩٧٢م.
٤١- النَّابغة الجعدي – حياته وشعره –: د. خليل إبراهيم أبو ذياب، دار القلم للطباعة والنَّشر، دمشق، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
٤٢- النَّظرة النَّبويَّة في نقد الشِّعر: وليد قصَّاب، منشورات المكتبة الحديثة، العين ١٤٠٨هـ.
٤٣- الوساطة بين المتنبِّي وخصومه: للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وزميله.

فهرس الموضوعات

المقدّمة ٤٤٥
الفصل الأول: الشّعر في مواكبة الغزوات ٤٤٧
(١) غزوة بدر: ٤٤٩
(٢) غزوة أحد: ٤٥٢
(٣) غزوة الخندق: ٤٥٩
(٤) غزوة مؤتة: ٤٦٦
الفصل الثّاني: القيم الفنّيّة في شعر الغزوات ٤٧٨
أوّلاً: أثر القرآن الكريم في أسلوب الشّعر ٤٧٨
ثانياً: اللُّغة الشّعريّة: ٤٨٣
ثالثاً: الصُّورة الفنّيّة: ٤٨٨
الخاتمة: ٤٩٥
فهرس المصادر والمراجع ٤٩٧
فهرس الموضوعات ٥٠١